الطبعة الأولى ٢٠٠٨
الطبعة الثانية ٢٠٠٨

ISBN 978-1-85516-312-6

دار الساقي
بناية تابت، شارع أمين منيمنة (نزلة السارولا)، الحمراء، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٦١١٤ ـ ٢٠٣٣
هاتف: ٣٤٧٤٤٢ (٠١)، فاكس: ٧٣٧٢٥٦ (٠١)
e-mail: alsaqi@cyberia.net.lb

«قصر الحمراء هو أجمل قصيدة عربية في أسبانيا»!

عبد الوهّاب البيّاتي/شاعر عراقي

«قصر الحمراء هو انعكاس صادق للتعايش الإسلامي المسيحي اليهودي في الأندلس»!

سعيد أفندي/مدرّس تاريخ عربي

«... إنّه رمزٌ حقيقيٌ لعظمة تاريخنا»!

سعيد أفندي آخر...

«إنّهم يكذبون...»!

سلاّم

على تلّ يرتفع مئتي متر عن الأرض، في منطقة من أطراف الرياض، يتعالى صرير آليّات وهي تمهّد بقواطعها الفولاذية قمّة التلّ.

وسط الصرير عمّال ينتشرون بمطارقهم ومعاولهم، تعلوهم خوذات بلاستيكية صفراء.

على جانب من الموقع بُنيت سقيفة خشبية. تحتها أربعة رجال، يعتمرون خوذات بألوان مختلفة. أحدهم غربي الملامح، في يده مسطرة كبيرة، يشير بها على خرائط، بعضها ملوّن، وأغلبها خطوط زرقاء.

غير بعيد عن السقيفة تنتصب لوحة معدنية بارتفاع ثلاثة أمتار، عليها معلومات عن المشروع. في أعلاها رسمٌ لسيفين متقاطعين تتوسّطهما نخلة. وهو شعار سعودي يرمز عادة إلى مشروع تملكه الدولة أو فرد من الأسرة المالكة.

يلي ذلك اسمُ منفّذ المشروع...

ثمّ استشاريّ المشروع...

ثمّ رموزٌ وأرقام كثيرة...

وأخيراً...

اسم المشروع: بناء قصر خاصّ (الحمراء)!

ذاك التلّ

إنّها الثالثة فجراً. . .

منذ قليل فقط، أُطفئ ضوء آخر حُجرة نوم من الحُجرات الثلاثين على متن اليخت الفخم ذي الطوابق الأربعة.

لقد نام آخر الضيوف بعد أن أعيتهم حفلات متّصلة منذ عدّة صباحات.

في مقصورة القيادة، وعبر نافذة جانبية مشرّعة، كان صوت المياه المرتطمة على جانبي اليخت يدخل مع نسمة رقيقة من شهر يونيو (حزيران).

بدت السماء، من نوافذ المقصورة، صافيةً، فيما تبعثرت النجوم، في تشكيلة سحرية غامضة، على جسدها.

وعلى صفحة البحر السرمديّ المعتم تناثرت أضواء سفن وناقلات بعيدة وهي تشقّ طريقها ذهاباً وإياباً عبر المتوسّط.

رفع القُبطان اليوناني الواقف قُبالة الدفّة منظاره المقرّب وراح ينظر منه إلى الشاطئ الأسباني حيث سيرسو اليخت. على يمينه مساعد يتثاءب على مقعده، يحمل في يده المرتخية جهازاً يرتبط بسلك يتلوّى كأفعى أمازونية.

أتت، عبر الجهاز، أصوات كثيرة تختلط الفرنسية فيها بالإنكليزية والأسبانية. رفع المساعد الجهاز بهدوء وتحدّث إلى الميناء في ماربيا، للحصول على إحداثيات الرسوّ.

دون أن ينتبه أيّ من الرجلين، دخل شابّ وسيم يلبس بنطال بحر فضفاضاً وقميصاً مُقلّماً بخطوط صفراء. وقف خلف القبطان ومساعده، وقد انعكست أضواء رادار فسفورية جانبيّة على عينيه المتعبتين.

لم يدرك الرجلان وجود الشابّ إلاّ من رائحة سيجارته. وقف له مساعد القبطان بطريقة عسكرية مضحكة فيما اكتفى القبطان بإيماءة خفيفة من رأسه تحيّة للشاب.

- «متى نصل؟» سأل الشابّ.

- «بعد ساعة نكون قد رسونا أيها الأمير». أجاب القبطان وهو ينظر إلى ساعة السرعة أمامه!

- «أُحسّ أنّنا نبحر نحو زمن آخر في هذا العتم...»

قال الشابّ وهو ينظر إلى الفضاء اللامتناهي أمام اليخت. ما كان له أن يدرك في تلك اللحظة أنّ رحلته تلك ستكون بالفعل... باتجاه زمن آخر من العتم!

سأل القبطانُ الشابّ بلكنة عربية متكسّرة، تخلّلتها مفردات مصرية:

- «كيف كانت أمسيتكم أيها الأمير»؟

- «جيّدة. لكن مُرهِقة وصاخبة». أجاب الشابّ المقبل على الأربعين وهو يجاهد في إخفاء تثاؤبه.

دخل إلى المقصورة مهندس اليخت، حاملاً بيده كوباً من القهوة. حيّا الشابَّ بأدبٍ جمّ وأخذ موضعه إلى يسار القبطان، وانشغل بقراءة شاشة امتلأت بالأرقام المضيئة.

أطفأ الأمير عقِب سيجارته في منفضة قريبة، ودنا من النافذة المشرعة.

- «آه... كم أعشق ماربيا». قال وهو ينظر إلى حيث بدت بعض أضواء الشاطئ الأسباني كراقصة تغمز من بعيد لعاشقيها! وأضاف: «إنّها تذكّرني بمجد الأندلس. لكنّنا قد نعود بعد أسبوع أو اثنين على الأكثر إلى الكوت دازور ونبقى هناك لشهر أو يزيد»!

- «اليخت جاهز للإبحار إلى حيث يريد الأمير». قال القبطان «... إلاّ أنّي أرى ماربيا أجمل، خاصّة في هذا الوقت من العام».

- «صدقت...» أجابه الشابّ «ماربيا جميلة في كل وقت. لكنّها تفقد ألوانها في الصيف. تصبح كالرياض!»

لاحت ابتسامة من القبطان ونظر بطرف عينيه إلى حيث يقف الأمير خلفه وقال:

- «الأندلس أكبر من ماربيا. وأجمل منها أيضاً»... وأضاف دون أن ينتظر تعليقاً من الأمير «ماربيا يخوت وأصدقاء يتكرّرون... اعذرني أيها الأمير، فأنا لا أقصد شيئاً، لكنّي سمعتك تتحدّث في مناسبات كثيرة عن عِشقك لبعض مُدن الأندلس، حيث التاريخ والحضارة العربية، ولست أعتقد أنّ في ماربيا شيئاً من ذلك».

نظر إليه الأمير في براءة طفل يعترف وقال:

- «ربما تكون هذه زيارتي الخامسة أو السادسة إلى ماربيا، وفي كلّ مرّة أقرّر زيارة مُدن أندلسية أُحسّ بنخز في صدري، فتتأجّل رحلتي إلى وقت آخر. في ماربيا أُحسّ أنّي قريب منها. أشتمّ رائحتها، ولا تجرحني ذكراها».

بدت حُجّة الأمير ساذجة أمام القبطان. لكنّه أجابه في أدب:

- «أستميحك عذراً سيدي لو قلت شيئاً... كلُّ أمّة تفخر بتاريخها، لكنّها لا تقف عنده...». صمت القبطان لحظة كمن يرقب ردّ فعل الشابّ، ثمّ واصل حديثه: «لدى العرب موهبة فذّة في استحضار التاريخ والركوع أمامه كصنم وثنيّ. إنّه ارتباط لا أرى... لا أرى فضيلة في الوقوف أمامه طويلاً...». والتفت القبطان إلى الأمير الذي بدا منصتاً باهتمام: «أعتذر لو أسأت التعبير سيدي، لكن أردت القول بأني لا أعرف عن وجود العرب في الأندلس سوى أنه استمرّ فترة طويلة وانتهى. أنا أتحدّث هنا من حيث انتهى هذا التاريخ. وليس في النظر إلى تاريخ أصبح ميتاً ما يحزن». وكمعلّم ينصح طالباً أضاف: «لو كنت مكانك لزرت الأندلس منذ زمن. فما تراه اليوم قد لا يكون متاحاً إلى الأبد، كما أن أحداً لا يعلم ما قد يحدث في الغد».

- «وما الذي قد يحدث في الغد»؟ سأل الأمير.

- «في عالم مجنون تملأه الصراعات توقّع كلَّ شيء أحمق... أنت هنا اليوم، وقد تكون في مكان آخر غداً. ولو كنت مكانك لجبت كلَّ مُدن الأندلس مستذكراً تاريخاً عريقاً لا مجال للحزن فيه».

أمسك الشاب بذقنه واستغرق في تأمّل صامت قطعه صوت القبطان:

- «لو اتخذت قرارك فابدأ بغرناطة... لعلّها الأقرب إلى ماربيا».

نظر الأمير إلى القبطان وقال بنبرة متردّدة:

- «نعم... نعم... إنّها تستحقّ الزيارة بالفعل»، وشرد ذهنه في عتمة الليل.

عاود القبطان النظر في عدسته المقرّبة إلى الشاطئ الأسباني، وقال:

- «ربما طغت ماربيا في عقل العرب على تاريخ أندلسهم»!

نظر إليه الشاب ولم يعلّق.

استرسل الرجل في حديثه وهو يدير دفّته بهدوء تجاه اليمين:

- «في غرناطة الكثير لتراه. الطبيعة، الأسواق التاريخية، البوّابات المغربية الضخمة...»!

- «والحمراء...» دمدم مساعد القبطان الجالس إلى مقعده واللاسلكي ما يزال في يده.

نظر إليه القبطان، ثمّ نظر إلى الأمير وقال:

- «نعم... قصر الحمراء... ؟»

وضع الأمير كفّه اليمنى على موضع قلبه، ونظر إلى قبطانه وقال في ذهول...

- «رأيت صورَه، وقرأت عنه»

- «ليست صوره مثل حقيقته. إنّه جميل وغامض. عالم من

الأسرار. لقد زرته أنا وزوجتي منذ ثمانية أعوام أو أكثر. وما زلت أذكر تفاصيله حتى اللحظة... يا إلهي!»

- «إنّه قصر عربي! هل تعرف ذلك؟ إنّه جزء منّا هناك!» قال الأمير في شيء من الزهو المتكلّف.

- «نعم... أعرف أيّها الأمير».

عاد الأمير ينظر إلى الأفق المعتم حيث تلتصق السماء بالبحر

- «ما أجمل المنظر من هنا»، قال وأنزل يمناه من موضع قلبه.

دخل خادم للأمير وقدّم له فنجاناً من القهوة. ثمّ تراجع خطوتين وراء سيّده وجمد كصنم.

ارتشف الأمير قهوته، وأشعل سيجارة جديدة. اقترب من زجاج القُمرة الأمامي، فتراءى خيالُه وراء نقطة حمراء متوهّجة قرب فمه وهو يسحب نفساً من سيجارته.

- «أعتقد أنّنا في حاجة إلى بعض الراحة» قال الأمير «بتّ أحسّ بنفسي أتأرجح على صفحة المياه ولو كنت على اليابسة».

- «مضى على إبحارنا وقت طويل... من الطبيعي أن تحسّ بذلك أيها الأمير»! قال القبطان

سحب الشابّ نفساً آخر من سيجارته وقال:

- «أمامنا متّسع من الوقت للراحة، فالصيف ما يزال في انتظارنا». زفر الدخان من صدره وتابع قائلاً: «ربّما تمكّنت من زيارة غرناطة... ربّما». ثمّ نظر إلى ساعته، ومدّ يده ليضع

فنجان القهوة على رفّ خشبي مصقول، قبل أن يسرع الخادم في التقاط الفنجان من يده.

- «سأخلد للراحة قليلاً. لم أنم ما فيه الكفاية حتى الآن». قال الشابّ واتّجه إلى باب القمرة.

- «نوماً هانئاً أيّها الأمير» حيّاه القبطان وهو يلامس قبعته بأطراف أنامله فيما نهض المساعد ومهندس اليخت حتى غادر الأمير المقصورة يتبعه خادمه.

أمام باب جناحه، نظر إلى خادمه وقال: «أيقظني في الثامنة صباحاً».

وقبل أن يغلق الباب قال بلهجة أمير «أيقظ رماحاً معي»!

* * *

من حُجرة نوم تتوسّط اليخت تعالى صوت شخير متعدّد الطبقات، يشبه عزف كمان لمبتدئ.

وعلى ضوء خافت يتسلّل من وراء ستارة داكنة في الحجرة، دخل رجل له صوت أجشّ:

- «استيقظ»

- «مم..»

- «استقيظ يا رماح، فقد طلب طويل العمر أن نوقظك معه».

- «مم... مم... قل له إنّي استيقظت». ودفع بغطاء خمري اللون فوق رأسه.

- «قم يا رجل، إنّها الثامنة والربع».

- «صباحاً... أم مساء؟!»

- «صباحاً...!»

- «لعنة الله عليك... وماذ يريد مني الأمير في هذا الوقت المبكر؟»

- «ومن يعرف ماذا يريد طويل العمر؟ نحن ننفّذ فقط. قم فهو في انتظارك».

- «حسن... حسن... اسبقني إليه وسأتبعك».

ويصرّ الصوت الأجشّ الذي يشبه مجرشة حبوب:

- «بل الآن...!»

- «لعنة الله على أبيك...!»

- «سامحك الله. قم يا رماح... لن أغادر قبل أن تأتي معي».

نهض رجل أسمر سمين من تحت الغطاء. له شعر كثّ سميك كشعر ماعز جبلي. اتكأ على يده ونظر إلى الرجل بعين متعبة. كاد ينطق بسوء... لكن يكفي الرسول ما سمع حتى الآن.

مضى بتثاقل إلى الحمّام، بفردة حذاء واحدة، وصفع الباب من ورائه بعنف.

- «سيدي... هل يرضيك أن تراني هكذا... هكذا؟» خاطب رماح مِرآة حمّامه وهو نصف نائم.

أخذ صاحب الصوت الأجشّ يطرق الباب طرقاً عنيفاً:

- «عجّل... عجّل يا رماح».

إلى مائدة الإفطار كان الأمير مشغولاً بثلاث مكالمات هاتفية، أزعجه آخرها بشكل واضح.

-«ادفع له أكثر... المال سيغريه. لا شيء يقف بوجه المال»! وأقفل الهاتف.

جلس رماح إلى جوار الأمير الذي راح، بعد المحادثة، يقرأ في أوراق تراصّت أمامه. كانت تلك الأوراق أول ما يبدأ به يومه، تفده من بعض مكاتبه حول العالم حيث تتوزّع تجارته.

كانت المائدة قد نُصبت في مكان من مؤخّرة اليخت الراسي على مرفأ ماربيا. في مثل هذا الوقت من العام تكاد الشمس تنتصف السماء عند الثامنة صباحاً، أو بعدها بقليل، وتتناغم بعفوية أصوات النورس البحري مع نسائم رقيقة على صفحة الماء.

على رصيف الميناء وشارع بورتبانوس الرئيسي الموازي له كانت الحياة تدبّ بإيقاع هادئ رتيب. وعلى مقربة من يخت الأمير اصطفّت يخوت صغيرة، غُطّي بعضها بأشرعة تحميها من حرارة الشمس. وفي جهة غير بعيدة، اصطفّت ثلاثة يخوت متساوية الحجم كجِراء ترضع من ثدي أمّها!

ومع أنّ للأمير منزلاً بحجم قصر صغير يملكه في الحيّ الفاخر من ماربيا، فقد آثر تناول إفطاره الأول في المدينة على متن يخته قبل أن يتوجّه إلى منزله.

كانت عينا رماح المتكسّرتان تشيان بما أصاب من لذّة في الأيام الماضية. وهو عاشق لها في كلّ الأوقات.

إنّه رجل عنيف ولطيف في آن. تصعب السيطرة عليه، أو معرفة حالة مِزاجه. الوحيد الذي يملك السيطرة على انفعالاته، في الرضى والغضب، هو الأمير فقط. وكثيراً ما داعبه كلّ صباح بالعبارة ذاتها «أشتمّ رائحة عطِنة يا رماح». لا يقصد بذلك جسد الرجل، بل لسانه على الأرجح. إذ لا تكاد تمضي ليلة دون أن يسجّل رماح أربع أو خمس إصابات مُدمية في كبرياء حاضر أو غائب.

أحياناً، يتجاوز رماح خطوطاً أبعد مع بعض مرافقي الأمير،

أو ما يطلق عليهم اسم «الخويا». وهم جماعة تربّت مع الأمير، لا يستطيعون العيش بدون سيّد لهم، ولا الأمير يستغني عن رفقتهم.

ما كان رماح ليرضى أبداً أن يكون في مرتبة كتلك. لكنّه ما كان في الوقت نفسه قادراً على الانسلاخ من الدائرة الأقرب للأمير. من أجل ذلك، ابتكر طريقته الخاصّة في علاقته بمرافقي الأمير، فقد قسّمهم إلى فريقين: فريق يسمع له ولا يحادثه، وآخر يحادثه ولا يسمع له!

وماذا عن الذين لا يحادثهم أو يسمع لهم؟

لا يهمّه إذا كانوا موجودين أو ماتوا منذ خمس دقائق. وإذا كان رفاق الأمير يعرفون طبع رماح ولعلّهم بادلوه الشعور نفسه، فإنّهم لا يملكون سوى الترحيب به طالما أراد الأمير ذلك.

ما لا يدركه بعض رفاق الأمير، أنّهم، على اختلاف مستوياتهم الاجتماعية والثقافية، يتحوّلون بعد فترة إلى مرافقين، ثمّ إلى «خويا» أو تابع من نوع آخر. وما كان لرماح أن يكون استثناء.

كانت ثقافة بعض هؤلاء متواضعة، ولكن كان بينهم أيضاً أدباء وكتّاب. وهم على اختلافهم أصحاب فلسفات لا تستثني شيئاً، بما في ذلك الدين، كما هو رماح نفسه الذي يؤمن بنظريّة الآلهة المتعدّدة!

ذاك الصباح، إلى مائدة الأمير، سرت قشعريرة برد خفيفة في جسد رماح الضخم، ولزم الصمت كطفل أمام والده.

كان الأمير أكثر نشاطاً وانشغالاً هذا الصباح من التفكير بعطن

لسان رماح، فمضى يقرأ ورقة إثر أخرى، ويعطي تعليماته لخادم وقف قريباً منه.

على مائدة الإفطار نظر رماح إلى بيضة وضعت أمامه على كأس يشبه وعاء أيس كريم. التقطها بهدوء وهو يفكّر «أهذا ما سيفطر به جسم ثور»؟ أعاد البيضة بالهدوء نفسه إلى كأسها، وأسند رأسه إلى ظاهر يده، في حالة تشبه النوم. وقد لا يلام في ذلك إن عُلِم أن توقيتاً مبكراً كهذا هو موعد نومه على الأرجح لا استيقاظه.

- «كيف أنت هذا الصباح يا رماح؟» سأله الأمير وهو ما يزال ينظر إلى بعض أوراقه.

انتفض الرجل الضخم كمن غفا لثوان. التفت إلى الأمير وقال:

- «الحمد لله يا طويل العمر»، وتثاءب بقوّة كاشفاً عن أسنان دفع فيها أكثر من عشرة آلاف يورو لإعادتها إلى ما كانت عليه قبل أكثر من ستّين عاماً.

- «هل نمت جيداً؟»

- «لا والله... فخادمك ابن الـ... ما تركني في حالي».

- «لا بأس. لك أن تعود إلى نومك بعد الظهر. الصباح جميل وأردتك أن تشاركني الإفطار».

شعر رماح بالزهو لأنّ الأمير اختاره هو، دون الثلاثين مرافقاً وضيفاً على اليخت، ليشاركه إفطار الصباح. حتى البيضة الصغيرة التي كان يقلّبها ساخراً بدت أكبر وأجمل. ولو طلب منه الأمير، في تلك اللحظة، أن ينام على كومة مثلها لفعل!

تلقى الأمير اتصالاً آخر أولاه اهتماماً واضحاً: «مم... وماذا قال؟ حسن.. ادفع أكثر».

انتهت المحادثة السريعة، وتحرّك فضول رماح الأكبر من جسده.

- «خير يا طويل العمر؟»

- «إن شاء الله خير»، أجابه ولزم الصمت.

لا يجرؤ رماح ولا غيره أن يسأل الأمير أكثر مما يعطي هو من جواب، ولو كان مبتوراً. فكلّهم يعرف طبع الشابّ الكتوم، لا سيّما إن تعلّق الأمر بما يهمّه شخصياً. إذاً هي مكالمة تهمّه شخصياً... قدّر رماح.

انضمّ إلى مائدة الإفطار مرافق للأمير كان يهمّ بالعودة إلى الرياض. التقط بعض الأوراق من حقيبة سوداء وضعها على طرف المائدة، وتحدّث مع الأمير بصوت خفيض. خفيض بما يكفي لإغاظة رماح.

- «إن لم تشأ أن أسمع ما يدور يا طويل العمر فدعني أعود إلى حجرتي». قال في عتب هو أقرب إلى الغضب.

أشار عليه الأمير أن يصمت ويبقى مكانه. فزاد حنق رماح حتى استحالت سُمرة وجهه إلى لون خمري بقدر ما ثمل البارحة.

أنهى الأمير عمله بورقة وقّعها وسلّمها إلى الرجل الذي مضى من فوره.

نظر رماح إلى خادم يقف خلفه، وطلب منه بعضاً من القهوة. وفور أن بدأ الأمير إفطاره بدأ هو.

- «كم سنبقى هنا يا طويل العمر؟»

- «ربّما عشرة أيام أو أكثر».

- «هذا أفضل. تعبت من الإبحار. أشعر بالأرض تتراقص من تحتي».

- «إنّها كذلك لأنّنا على ظهر اليخت». قال الأمير وهو ينظر إلى جريدة وضعها الخادم بجواره. ثمّ التفت إلى رماح «سنقضي بعض الأيام في زيارة للأندلس...؟»

- «أي أندلس؟» سأل رماح وقد توقّفت لقمة في منتصف حلقه، ثمّ أردف بصعوبة: «ما دفعك إلى قرارك هذا أيها الأمير وقد جهدت أكثر من مرّة في إقناعك أن نقوم بزيارة كهذه؟»

- «لعلّي أملك اليوم وقتاً لا أملكه غداً... لعلّي أيضاً تجاهلت بما يكفي ألماً في داخلي كان يحول بيني وبين الأندلس...». ورفع رأسه إلى الأعلى كمن ينظر إلى شيء معلّق في السماء «لربّما كان عليّ أن أفعل ذلك منذ زيارتي الأولى إلى ماربيا... فلا شيء في هذه المدينة يذكّر بالأندلس...». صمت قليلاً، وندت عنه تنهيدة «آه... الأندلس». ثمّ مال إلى رماح يسأله «ما أجملُ ما يمكن أن نراه في الأندلس»؟

- «إن شئت أن نرى كلّ شيء فإنّنا نحتاج إلى أكثر من أسبوع أيّها الأمير».

- «لسنا مُجبرين على رؤية كلّ شيء في رحلة واحدة. لكنّنا نملك وقتاً يكفي لرؤية الحمراء، بعدها يمكن أن نرى أيّ شيء في مرّات قادمة».

صمت الأمير لحظات... وأخذ ينظر إلى طائر نورس حطّ على حافّة اليخت القريبة، في حين أخذ رماح يقلب الصباحات والمساءات التي يتحدّث عنها أميره في المرّات القادمة!

- «قُل لي يا رماح، هل زرت الحمراء من قبل؟»

- «أتقصد قصر الحمراء أيّها الأمير؟... حسناً، وحده يحتاج إلى يومين. فقد زرته منذ زمن بعيد».

لم يزر رماح الحمراء من قبل. ولن تضرّه كذبة صغيرة كهذه ليبدو العارف بكلّ الدنيا أمام أميره. عليه أن يدفع الثمن إذاً... فكّر رماح وهو يفرك فمه بمنديل طعامه كطفل يتعلّم الأكل، ثمّ سأل في غضبة مكتومة:

- «متى تريد أن تقوم بالزيارة أيّها الأمير؟»

- «ماذا تقترح أنت؟»

- «بعد أسبوع من الآن... نكون قد ارتحنا قليلاً ثمّ...»

- «لا... سنمضي بعد غد؟» قال الأمير في حزم.

- «ولماذا بعد الغد تحديداً؟»

نظر الأمير إلى النورس ينظّف ريشه على حافّة اليخت، ولم يجب!

* * *

في حيّ راق من ماربيا، ضمن ما يعرف بـ«الميل الذهبي» Golden Mile، حيث القصور والفِلل وعُلب الليل تجتمع كلّها في بقعة واحدة، يقع منزل فخم من طابقين. كان بناء مهملاً لعائلة إسبانية عريقة هاجرت إلى أميركا في الستّينيات من القرن الماضي، اشتراه الأمير منذ عشر سنوات. وقد أبقى على شيء من طابعه الأندلسي من الخارج، لكنّه أعاد تصميم داخله، مشرفاً على الكثير من التفاصيل بنفسه.

ينفتح الطابق الأرضي حيث الباب الرئيسي للدار على بهو زيّنت أرضيّته برخام أسود وأبيض على شكل رقعة شطرنج. تبدو الأرضية بشعة، لكنّ الأمير هو صاحب القرار. في البهو الرئيسي ينتصب تمثالان من المرمر يقعان على جانبي الدرج الرخامي الصاعد إلى مخدع الأمير في الطابق العلوي، وهو درج عتيق أبقاه الأمير على حاله.

إلى يمين البهو مكتب للأمير غطّيت حيطانه بخشب الأبنوس المطعّم بأوراق ذهبية رقيقة. يجاور المكتب جناح خُصّص للضيوف. وإلى يسار البهو الرئيسي مجلس كبير يتّسع لأكثر من خمسين شخصاً، له أرضية رخامية مكشوفة تراصّت عليها مقاعد

ذات طراز كلاسيكي يحبّه الأمير. في الجهة الخلفية منه، وعلى عرض الدار بأكملها، تمتدّ مائدة فخمة من الخشب المحفور. تنفتح القاعة من هنا على حديقة كبيرة، وحوض سباحة يشبه ما في الفنادق الفخمة. وفي ركن قريب من الباب الزجاجي للحديقة عريشة عنب اصطفّت تحتها كراسٍ من الخيزران عليها وسائد حُشيت بالريش. أمامها نافورة مياه عتيقة على شكل فتاة تميل إلى الأمام مرحّبة بالناظر إليها. تحمل في يد إكليل غار، وفي اليد الأخرى دورقاً ينسكب الماء منه. هنا تقام مائدة غداء الأمير ورفاقه معظم أيام الصيف إن كان الجوّ ملائماً، وفي المكان نفسه تقام حفلات السهر حتى الصباح.

تدير المنزل سيدة إسبانية لطيفة، التحقت بخدمة الأمير منذ اشترى المنزل. تجيد الإنكليزية وتنطق ببضع كلمات عربية. وعلى الرغم من أنها لا تزال في أواسط العمر، فقد تركت وفاة ابنة لها في حادث غرق ندوباً على روحها، فبدا وجهها يبعد بفاصل زمني عن عمرها الحقيقي.

ذاك الصباح كان كلّ شيء قد أُعدّ لاستقبال الأمير في منزله، بما في ذلك الطريق المرصوف بالحجارة الذي تجتازه السيارة حتى مدخل الدار، وقد شُذّبت الزهور على جنباته وغُسل مراراً.

في الواحدة بعد الظهر، امتلأ المجلس الكبير في الدار بمرافقي الأمير وكثير من الضيوف. وفي الثانية تماماً كانت مائدة الغداء في الحديقة الخلفية قد أعدّت. كان كلّ شيء يسير بطريقة آليّة، كما لو أن الأمير يعيش هنا طوال العام، وكما لو أن آخر زيارة له لم تكن منذ بضعة أشهر مضت!

– «نعم... نعم... كنت واثقاً من أنه سيبيع». قال الأمير في محادثة هاتفية جاءته وهو إلى مائدة الغداء. كان رماح أقرب الجالسين إليه، يليه رجل ذو وجه ناتئ العظام وصوت يشبه نقيق ضفدع، وكان لا يكفّ عن إزعاج رماح ببعض التعليقات الساخرة. وعلى الرغم من أن صحبة الأمير تقتضي نوعاً من اللياقة، فهذه لا تعني لرماح، إن طفح به الكيل، أكثر من اسم لحيوان منقرض!

– «مبروك يا طويل العمر» قال الرجل الجالس إلى يمين رماح يهنّئ الأمير على صفقة شراء التلّ الكبير في الرياض. ردّ الأمير بالشكر ومضى ينهي حساءه. لم يعرف رماح الجالس بين الرجلين علامَ يدور الكلام، وهو الذي يزعجه أن يكون من المقرّبين إلى أميره، ولا يعرف ما في رأسه، على الأقلّ بدرجة ما يعرفه ذاك الجالس إلى يمينه.

– «تهنّئه على ماذا؟» سأل رماح ذا العظام الناتئة في تعالٍ وتأفف.

قبل أن يردّ الرجل، قال الأمير:

– «أرض اشتريتها في الرياض. هل ارتحت يا رماح؟»

– «بل هي جبل يا طويل العمر... جبل». قال الرجل الجالس إلى يمين رماح، مشدّداً على الكلمة الأخيرة بحماسة يستفزّ بها جهل مجاوره بالأمر.

انصرف كل إلى طعامه، باستثناء رماح الذي أبى إلاّ أن يسأل:

– «أهي تلك التي شغلتك في الأيام الماضية؟»

– «نعم» أجاب الأمير وهو يدفع ظهره إلى الوراء. «عرفت أنه سيكون لي» أضاف وهو يشدّ على قبضة يده «إنّه يطل على منظر خلاّب... وادٍ عن اليمين وآخر عن الشمال، والرياض أمامك على مدّ النظر».

– «صدقت والله يا طويل العمر» قال أحد الجالسين، ومثله فعل آخرون، دون أن يعرف أحدهم ما إذا كان الأمير يتحدّث عن أرض فوق تلّ أو عن كوكب في الفضاء.

مضغ رماح قطعة لحم على عجل وسأل:

– «وماذا تريد أن تعمل بهذا التلّ؟»

– «وما شأنك يا رماح؟» قال الرجل الملاصق له. ودون أن يعيره رماح اهتماماً، أعاد السؤال على الأمير.

– «سأبني عليه منزلاً... بل قصراً تحيط به حدائق لا مثيل لها في الرياض كلّها». قال الأمير بنشوة المنتصر.

انصرف الجميع إلى طعامهم وأحاديثهم غير آبهين، في أعماقهم، بتلّ اشتراه الأمير أو جبل. ولا حتّى بما ينوي أن يفعل عليه أو لا يفعل، ما دام الأمر لا يتعلّق بهم مباشرة. إلاّ أنّه لم يفت أحداً منهم أن يكرّر التهنئة للمرّة الألف، متصنّعاً ابتسامة من هو أكثر سعادة بشراء التلّ من الأمير نفسه.

بدا الأمير غير مهتمّ برأي أيّ منهم. فهو يعلم بأنّهم سيوافقونه على كلّ ما يقول ويرى، ولو كان مخطئاً. لقد تعلّم منذ الصغر أنّ المال الذي يجلب لصاحبه الأضواء والأصدقاء،

يجلب بالمثل نوعين آخرين من البشر: منافقين وعاهرات! وهو إن كان بعيداً بقدر ما عن النوعيّة الثانية، فإن جمعاً من النوعيّة الأولى يحيط به إحاطة السوار بالمعصم. على الرغم من ذلك، وفي صورة تبدو شديدة التناقض، فكثيراً ما تعمّد أن يكرّر أمام أصدقائه عبارة توارثها الملوك «الجميع أصدقاء الأمير، لكنّ الأمير ليس صديق أحد»، بمن في ذلك رماح الذي يصرّ على أن يستثني نفسه بنفسه!

بعد الغداء، مضى الأمير إلى قيلولة معتادة. وعند السادسة مساء كان يجلس مع أصدقائه في الحديقة الخلفية.

قبل حوالى ساعة من غروب الشمس، مضى الجميع، سيراً على الأقدام، إلى شارع بورتبانوس، حيث تتهيّأ المطاعم والحانات لاستقبال روّادها الليليين.

كان الأمير يسير وهو يشبك يديه وراء ظهره. ينصت إلى أحد أصدقائه يحادثه في أمر، قبل أن يتراجع الصديق إلى الوراء مفسحاً لرماح كي يتقدّم بعد أن طلبه الأمير.

– «لن نمضي كلّنا إلى الحمراء... سيّارة واحدة تكفي». قال. وبعد لحظات أضاف: «سنزور غرناطة صباحاً، نرى الحمراء ونعود في المساء».

لم يعلّق رماح بشيء. وأخذ يتهيّأ للرحلة...

في الصباح التالي انصرف الأمير إلى بعض أعماله حتّى الظهر. من بين ما أنجزه اتصالات كثيرة مع مكتبه في الرياض، وفيها طلب قائمة بأسماء شركات عالمية تصمّم القصر الذي عزم

على بنائه فوق التلّ الذي اشتراه على أطراف مدينته. كان حريصاً على أن يبدأ الإنشاء فور عودته.

فجأة، وفيما الأمير يخطّ شيئاً على بعض الأوراق أمامه، أحسّ بانقباض في صدره. ثمّ لم يلبث أن أحسّ بقلبه يتراقص داخل قفصه. كان الخوف والسعادة يمتزجان داخله في اتحاد نادر.

تساءل الأمير والقلم يرجف في يده: إن كانت الأرض التي اشتراها سبب سعادته، فهل زيارته للحمراء سبب خوفه؟ لكنّه لم يرَ الحمراء. لم يدخلها. ولم يعرفها من قبل.

في هذا الوقت من النهار كان رماح يجدّ في البحث عن أماكن تبيع كتباً عن غرناطة وقصرها العتيق. في صحبته خادم يساعده على حمل ما يشتريه من كتب، ولم تكن كثيرة. فمعظمها كتيّبات سياحية لا تتطلّب مرافقاً لحملها. لكنّه رماح على أيّة حال. وأكثر ما وجد منها مكتوب باللغة الأسبانية أو الفرنسية أو الإنكليزية. وفي ما عدا معرفة قليلة بهذه الأخيرة، فإنّ علاقته باللغات الأخرى... تماثل معرفته بأسرار الذرّة!

لم يكن اختيار الأمير لرماح كي يعدّ له أمر رحلته، ويرافقه فيها، اختياراً عشوائياً. فرماح، إلى ظرفه وعبثه وسرعة هيجانه، عرفه الأمير كقارئ جيّد. وهو فوق ذلك متحدّث يعرف كيف يروي الأحداث كما لو قد شارك في صنعها. كما أنّه صاحب ذاكرة حافظة، لا تفوته التفاصيل، وإن اضطرّ أحياناً إلى فبركة ما قد ينسى منها. «إنّها ترميمات للبناء الأصلي لا تُفقده حقيقته» على حدّ وصفه!

لم يظهر رماح في اليوم التالي في مجلس الأمير. فقد أمضى وقته بين نوم وقراءة.

قرأ في يوم ما لم يقرأه طوال حياته عن غرناطة وقصرها العتيق. وبعد أكثر من ثماني ساعات أمضاها في القراءة، وجد نفسه، دون أن يدرك، مندمجاً مع قصص أندلسية قديمة، كما لو أن حنيناً جرفه إليها بقوّة نهر فاض عن ضفّتيه. لم يكن كلّ ما قرأه جديداً عليه. لكن القرب من المكان جعله يقرأ ما يعرفه كأنّه يعيشه.

أمر آخر لم يدركه رماح، في البدء على الأقلّ، هو أنّه كان قد شرع يقرأ في كتيّب اشتراه، يتحدّث عن غرناطة ومعالمها في معزل عن المدن الأندلسية الأخرى. وكان كلّما فرغ من قراءة الفصل الأول، يجد نفسه يعود إليه ويقرأه من جديد كمن يراه للمرّة الأولى.

وتكرّر الأمر أربع مرّات.

كان عنوان الفصل: «قصر الحمراء... حبّ ودم!»

* * *

في الثامنة من صباح اليوم المحدّد للسفر، انطلقت باتجاه غرناطة سيّارة رانج روفر جديدة بيضاء، تحمل الأمير وحارساً له، ورماح وسائقاً إسبانياً اسمه بيدرو، يتحدّث الإنكليزية بلُكنة تشبه البايلا!

كان اختيار الأمير لسيارة رباعية الدفع موفّقاً. فعلى الرغم من أن الطريق إلى غرناطة سهلة ومريحة، فإنّ الرحلة عبر تاريخ الأندلس شديدة الوعورة.

بدا البِشر واضحاً على مُحيّا الأمير منذ استيقظ في الصباح. وكان بحماسته الغريبة لزيارة غرناطة والحمراء كمن يستعجل العودة إلى ملك ضاع منه.

كانت الرحلة تخترق الكثير من الوديان والسهول التي لا تزال تلبس أخضر الربيع، مما أثار شجن الأمير، ومثله رماح، مستذكرين تاريخ العرب في هذا المكان، كما لو كانا خليفة وقائد جُند!

طالعتهما في الطريق علامات بأسماء الاتجاهات. وقد استغلّ رماح تلك العلامات، بما يحمله بعضها من أسماء عربية، لإعادة شحن أشجانه الشخصية، وأشجان أميره.

- «قرطبة، غرناطة، إشبيلية... آه، أسماء عربية صمدت رغم رحيلنا القديم أيها الأمير». وتضخّم صوت رماح كأنّه يخاطب حاكماً لا أميراً.

دمدم الرجلان تحسّراً. وفاتهما أنّ تلك الأسماء جميعها قوطية منذ أكثر من ألفي عام، ولا علاقة للعرب بها أصلاً. لكنّ ما يجعلها عربية في نظرهما أنها لا تزال تتردّد في كلّ شارع عربي.

على جانبي الطريق تظهر قلاع قديمة. بعضها لا يزال متماسكاً، كما لو أنّها بنيت بالأمس، ومعظمها بقايا يجمع بينها طابع عربي الملامح.

كان رماح يشير إلى كلّ قلعة مستعرضاً ثقافة وهمية وإلماماً بتاريخ لا يُلمّ به أحد سواه: «تلك القلعة والله أعلم هي التي شهدت انتصار ابن المعِزّ، القائد المسلم، على النصارى الإسبان. وذاك الحصن الذي تراه في البعيد، أيها الأمير، هو على الأرجح الذي استُشهد عنده القائد ابن المعين ودفن فيه».

والحقيقة أنه لا يوجد قائد عربي في تاريخ الأندلس يحمل اسم ابن المعز ولا ابن المعين، لكنّه خيال خصب يحسن رماح استخدامه.

«الله الله يا أندلس، يا فردوسنا المفقود ما أجملك» قال الأمير في نبرة حزن، ردّ عليها رماح بعبرة مماثلة، ثمّ واحدة أخرى من المرافق الحارس الذي لا يعرف ما إذا كانوا يسيرون في الأندلس أو في مكان من جزر الفيليبين!

أظهر الأمير شغفاً متعاظماً لمعرفة تفاصيل ما يراه. كان مؤمناً

أنّ ثقافة رماح ستكون مفتاحه لفهم الأندلس أكثر ممّا قرأ على مقاعد المدارس التي تعلم فيها. بات مؤمناً أنه لا ينقص رماح سوى قدر ضئيل من اهتمام السماء به كي يتحوّل إلى خليفة أندلسي أو أحد ملوك الطوائف. لم يكن يخطر ببال الأمير أن ما يعرفه رماح عن الأندلس، باستثناء القليل الذي قرأه البارحة، وشيء أقلّ قرأه منذ بضع سنوات، لا يزيد كثيراً عمّا يعرفه الأمير نفسه. حتّى إن رماح كان يذكر بعض التواريخ الأساسية بدقّة تقترب أو تبتعد مئة سنة على الأقلّ عن تأريخها الحقيقي.

لم تكن التواريخ تعني شيئاً للأمير على أيّة حال، بل المدن والمعالم. ولن ينسى رماح لحظة سأله أميره عن موقع الصخرة التي ألقى طارق بن زياد من فوقها خطبته يوم دخل الأندلس. ومع أنّ التاريخ ينفي القصّة من أصلها، فإنّ رماح لم يكتفِ بتأكيدها بل كاد يُقسم أنّ أثر قدمي طارق ابن زياد ما زال محفوراً حتّى اللحظة فوق الصخرة!

ولم يكن ليغيب عن رماح حقيقة أن أميره هو كأيّ رجل عربي، تطربه قصص الأندلس حيث تمتزج الأسطورة بالحقيقة.

والحقيقة هنا، أنّ قصصاً كتلك ما كان لها أن تتأجّج في خيال الأمير أو رماح بفعل الأحداث التي سجّلها تاريخ موثوق به، بل بما صوّرته الأعمال الدرامية العربية على الفضائيات.

قبل ساعة من وصولهم، تركّز حديث رماح على قصر الحمراء تحديداً. وكما كان يعيد قراءة الفصل الخاصّ بالقصر الذي وجده في الكتيّب الصغير في ماربيا، كذلك أعاد سرده بالوتيرة نفسها على أميره.

- «لا يوجد ما هو متّفق عليه بخصوص الحمراء أيّها الأمير. . . فحتّى اسم القصر مختلَف عليه، أهو بسبب لون المكان الذي بُني عليه، أم هو اسم العائلة التي سكنته، آل الأحمر. . لا أحد يعلم. لكن من هذا القصر أتت نهاية العرب في الأندلس».

ومضى رماح يروي قِصصاً غامضة عاشها القصر، وإن كان في بعضها قدر من حقيقة، ففيها من خيال رماح ما لا حدود له.

كان يرفع نبرة صوته حيناً ويخفضها حيناً آخر كممثل على خشبة مسرح، فيما السيارة تبطئ من سرعتها وهي تقترب من بيوت تفرّقت هنا وهناك.

- «هل وصلنا؟» سأل الأمير.

- «نعم. . .» أجاب رماح بفخر قائد جيش منتصر.

- «وأين الحمراء»؟

- «هناك أيّها الأمير». . . قال السائق، الذي فهم سؤال أميره، وأشار بإصبعه إلى تلّة بعيدة غطّت الأشجار قمّتها.

أخذ الأمير ينظر إلى التلّة وهم يقتربون منها رويداً رويداً.

- «تلك الحديقة التي تخرج المياه من بعض تماثيلها، أهي في القصر الذي هناك؟»

- «إن كنت تقصد حديقة السباع أيّها الأمير فنعم، هنا مكانها. في حديقة القصر نافورة ماء يحملها اثنا عشر سبعاً».

وكمغنٍّ أوبرالي متضخّم الصوت أضاف العجوز: «أكّد البعض أن صرخات أكثر من عشرة رجال من بني سراج، وهم أمراء بني الأحمر ووزراؤهم، تتردّد في جنبات الحديقة بعد أن قُطعت رؤوسهم فيها».

- «ولماذا قُطعت؟»

- «لأنّ أحدهم أحبّ قريبة للملك واختلى بها». وتابع رماح روايته: «هذا القصر شهد عزّ العرب في الأندلس، وهو أيضاً من شهد ذلّهم. ومنه طُرد آخر ملوكهم أبو عبد الله الصغير، الذي بكى كما تبكي النساء، قبل خمسة قرون».

لفظ رماح جملته الأخيرة بألم مصطنع، فيما الأمير ينصت، ويشاركه ألمه بهزّة من رأسه.

أجاد رماح إخراج روايته. . . ومع أنه اختصر تاريخاً طويلاً إلى ساعة أو أقلّ، فقد استطاع أن يشعل في أميره شوقاً إلى رؤية القصر كمن قضى نصف عمره يسكن فيه!

وحتى اللحظة التي اجتازت فيها السيّارة قلب المدينة، لم يحرّك الأمير ناظريه عن التلّ الذي يسكن القصر فوقه. كان يكتفي بالنظر إلى ساعته، ليس مللاً ممّا يسمعه، بل استعجالاً للوصول إلى ما سمع عنه.

توقّفت الرانج روفر في ساحةٍ أسفل تلّة الحمراء على أطراف المدينة القديمة يقال لها بلازا نويبا Plaza Neuva. ترجّل الأمير من السيّارة دون أن يزيح بصره عن الحيطان الحمراء كمن هو خائف أن ينتقل القصر من مكانه!

من وراء أشجار سرو وحور غطّت قمّة التلّ، ظهرت بعض أسوار الحمراء وشيء من قرميد قديم. تخيّل الأمير القرميد خوذات جنود يتأهّبون لقتال أو يستعدّون للرقص.

- «بقي شيء واحد لم أقله أيّها الأمير». قال رماح في جدّية

وهو ينظر إلى الأعلى «قوّة الحمراء ليست في تاريخه، بل في غموضه!»

التفت إليه الأمير...

ثم عاد ينظر إلى الأعلى حيث القصر... ودون أن يحرّك إصبعاً سأل «هل هناك أرواح تسكن الحمراء؟»

* * *

أمام أحد كتّاب العدل في مدينة الرياض، كان وكيل للأمير يوقّع نيابة عنه عقد شراء التلّة على أطراف المدينة، ويسلّم شيكاً بثمنها.

تمّ ذلك في الواحدة بعد الظهر بتوقيت الرياض، أي حين كان الأمير يقف أسفل تلّة الحمراء في غرناطة.

بقي السائق ينتظر ومضى الأمير وحارسه ورماح باتجاه أقصى ساحة بلازا نويبا إلى الشمال، حيث يختفي نهر دارو Darro. كانت الأشجار التي تداعب بأغصانها حيطان الحمراء في الأعلى تعطي القصر منظراً مهيباً أكثر من القصر نفسه.

واصلوا سيرهم بما يشبه طوافاً لا بدّ منه حول التلّة من أسفلها، إلى أن انتهوا أمام طريق ترابيّ صاعد باتجاه الشمال. توقّفوا هناك ثمّ عادوا أدراجهم إلى حيث كان السائق ينتظر، وفي مقهى قريب جلسوا إلى طاولة عليها مظلّة صفراء.

تناولوا طعاماً خفيفاً. ثمّ نهض الأمير وحده، وأشار على رفاقه بالبقاء حيث هم. جال على محلاّت لبيع الكتب والتذكارات، واشترى خريطة لغرناطة، وأخرى للحمراء، وكتيّب معلومات عن القصر.

لم يكد يجلس للحظات، فور عودته، حتّى قام من جديد، ونزع عنه سترته الخفيفة البيضاء، وقال: «لنبدأ جولتنا». وبخطوات سريعة اجتاز الشارع إلى الناحية الأخرى، يتبعه حارسه، ثمّ رماح وهو يمضغ قطعة حلوى، وبقي السائق.

«مِن هنا» أشار الأمير إلى طريق دلّتهم عليه لوحة مثبتة إلى عمود. سار بهمّة من يريد أن يكشف غموض هذا الاتحاد النادر بين الخوف والبهجة في داخله. أراد أن يرى ما يخفيه القصر. لم يكن يعرف ما ينتظره في الأعلى!

مضى الرجال مسرعين، عبر مدخل جانبي يؤدّي إلى الحمراء. سلكوا طريقاً تظلّلها أشجار سنط وكستناء عالية. وعلى كل جانب من الطريق ذات الانحدار الشديد في الصعود والهبوط، قناة ماء تهدر على مدار العام، تذكّر برخاء قديم يرشح من جدران القصر العتيقة.

صعد الأمير بخطوات سريعة، يتبعه حارسه، وخلفهما ببضعة أمتار رماح. وقد اضطرّ الأمير غير مرّة إلى التوقّف ريثما يتبعه رماح الذي أنهكه الصعود.

أخيراً، وقف الثلاثة أمام «بوّابة العدالة» المدخل الرئيسي للحمراء. البوّابة ضخمة وعالية. لها أساسات من حجر صلد، بنيت عليها حيطان من آجر أحمر. يتقوّس خارجها على شكل حدوة حصان. فوقها مباشرة صفٌّ من الحجارة. في وسطها انتصب حجر يحمل نقشاً غريباً. يصعب رؤية النقش إلاّ لعينٍ تصيبه صدفة. وقد رآه الأمير... «يبدو أنّه أكثر من قصر غامض» قال وهو ينظر باتجاه رماح الذي كان لا يزال يجاهد مع رئتيه.

بعد البوّابة الرئيسية، ببضع خطوات، تأتي بوّابة أصغر، تُفضي إلى طريق صاعدة من جديد إلى أعلى التلّ. عندما رآها رماح تدلّى لسانه. ولو تخيّل المرء ناراً تقطر من هذا اللسان لأمكن وصف رماح في هذه اللحظة بقنبلة مولوتوف!

جاهد الرجل في الصعود حتّى أدرك القمّة، وألقى بجسده على مقعد قريب، ثمّ قال لحارس الأمير بأنفاس متقطّعة: «أحضر... أحضر بعض الماء». ومال برأسه إلى الطاولة أمامه بعد أن جمع سترته عليها كوسادة.

تلفّت الأمير من حوله: «أين القصر»؟

لم يكن أمامه سوى بناء أوروبي الملامح، وبعض الخرائب خلفه.

نظر إلى يساره، فرأى بوّابة خشبية تشبه البوّابة الرئيسية التي اجتازوها منذ قليل في الأسفل.

سار باتجاه حارس يستظلّ تحت شجرة، وسأله أين قصر الحمراء، وكيف يدخلونه؟

بعد الكثير من الإشارات والكلمات الإسبانية المطعّمة بأنفاس الزمن، استطاع الأمير أن يفهم شيئاً واحداً: القصر هناك خلف الأشجار القريبة، لكنّ مكتب التذاكر يقع في الأسفل، قبل البوّابة الرئيسية التي اجتازوها منذ ربع ساعة.

- «والله... والله... لو قالوا لي إنّ السلطان بنفسه ينتظرني داخل القصر ما عدت إلى الأسفل كي أحصل على التذاكر». قال رماح في حنق وتساءل لاهثاً «أين بدرو.. هه؟»

بعد نصف ساعة اتصل السائق بالأمير «آسف سيّدي...

ذهبت لأحصل لكم على التذاكر، لكنّها نفدت قبل العاشرة. ليس أمامنا سوى الانتظار إلى الغد إن أردنا الحصول على تذاكر للقصر».

– «سنمضي الليلة في غرناطة إذاً» قال الأمير وأضاف: «حسن، يبدو أنها مدينة جميلة. لنستمتع بليلتنا فيها».

قضى الثلاثة ما يقارب الساعة يتجوّلون على قمّة التلّ. ولم يشعر الأمير بالرهبة التي كان يتوقّعها أثناء جولته تلك. وبدا أنّ الأمر يسير باتّساق عجيب مع رماح الذي لم يحسّ مثل أميره، بقشعريرة كان قد توقّعها عندما تطأ قدماه أرض الحمراء. ألأنهما لم يدخلا القصر بعد؟

عاد الثلاثة، بعد أن أقلّهم السائق، إلى ساحة بلازا نويبا التي انطلقوا منها. وكان أول ما فعلوه أن دخلوا متجراً يبيع ثياباً صيفية خفيفة تلائم طقس غرناطة الساخن، ومبيت ليلة واحدة. توجّهوا بعدها إلى فندق يقع إلى الجهة الشرقية الجنوبية من الحمراء.

كان الفندق الذي نزلوا فيه ذا لون أحمر يحمل طابعاً عربياً أندلسياً، حتّى لتظنّه جزءاً من الحمراء.

تناول الجميع طعام الغداء في شرفة تطلّ على جبال سيرا نيفادا، المكلّلة بالثلج مدار العام تقريباً، والتي تطلّ بدورها على مروج غرناطة. وبعد أن فرغوا قرابة الثالثة بعد الظهر، مضى كلٌّ إلى حجرته يطلب قِسطاً من الراحة.

عند السادسة كان الأمير أوّل من نزل إلى بهو الفندق. لم ينم جيّداً، فقد أرّقته أفكار كثيرة، وقلّبته في فراشه لأكثر من ساعة. تبعه إلى البهو حارسه يحمل الكتيّبات والخرائط. التقط الأمير

خريطة للمدينة، وأودع الباقي لدى عاملة استقبال في الفندق، ومضيا يستكشفان المدينة.

سارا حتّى بلغا الساحة نفسها التي توقّفا عندها أوّل مرّة. ومن هناك سارا باتجاه النهر، ثمّ أخذا الطريق الصاعدة باتجاه «البايسين»، وهو حيّ عربي قديم بُني على تلّ يقابل الحمراء من الشمال والشرق، وعلى الارتفاع نفسه تقريباً. وإلى كونه أقدم أحياء غرناطة، فهو أكبرها أيضاً.

قصد الأمير الحيّ بلا هدف. كأنّه يتبع، بلا إرادة، نداء يقوده إلى مكان في الأعلى. سارا بين بيوت عربية الملامح، عرّشت على حوافّها شجيرات ورد وياسمين. وردّدت الحيطان القديمة وقع أقدام الأمير وحارسه.

رغم أنّ علاقة الأمير باللغة الإسبانية كعلاقة حارسه باليابانية، فقد حاول ما استطاع قراءة إرشادات الأزقّة واللوحات الخزفيّة التي تحمل أسماء البيوت التي عُلّقت على أبوابها.

كانت النباتات المعرّشة على بعض النوافذ والأبواب، مع وقع الأقدام على الأرضيّات الحجرية النظيفة، تُعطي الأمير إحساساً بالخصوصيّة والراحة بعيداً عن أضواء المدينة، وعن أصدقاء الولاء عندهم حِرفةٌ أكثر منه فضيلة إنسانية.

القرميد القديم على أسقف البيوت المتلاصقة سافر بالأمير إلى زمن بعيد، رأى فيه شعراء وصعاليك يجوبون الطرقات من حوله بلباس عربي أنيق... يحمل بعضهم حوائجه صامتاً منفرداً، ويسير آخرون في جماعات يتحدثون. ومن وراء نوافذ زُيّنت بأشكال

حديدية مصنوعة يدوياً، أتته أصوات طرب عربي وعزف عود تدندن أوتاره لحناً اندثر.

مضى الأمير في طريقه عبر أزقّة المدينة القديمة كمن هو مقيم فيها منذ زمن. أو كمن سكنها في يوم ما.. كانت الحاسّة تقوده لا المعرفة، وهو ما أثار استغرابه حتّى إنّه سأل نفسه: «هل كنت هنا يوماً؟»

امتدّت الجولة حتّى الساعة الثامنة. كانت الشمس لا تزال تزيّن أبراج المدينة وقلاعها بشرائط من ذهب منصهر، والأمير ماض في طريقه وراء صوت يدعوه إلى مكان محدّد في الحيّ القديم.

بلغ النقطة الأعلى في الحيّ. وقبل أن يهمّ بالنزول عائداً، اتصل هاتفياً برماح، الذي استيقظ لتوّه، وطلب منه أن يلاقيه مع السائق عند المطعم، «نعم... نعم... عند المظلاّت الصفراء».

أراد الأمير في العودة أن يسلك الطريق التي جاء منها، لكن شيئاً ما قاده إلى طريق أخرى. فجأة وجد نفسه يقف وسط باحة تظلّلها أشجار كبيرة وصغيرة شُذّبت بعناية، ولها أرض حجرية تقرقع عليها أقدام زائريها. كان هناك صف من السائحين يقفون متلاصقين صامتين ينظرون إلى شيء قد سحرهم...

أحسّ الأمير بوخزة في صدره تشبه تلك التي أحسّ بها يوم سمع بالحمراء من فم القبطان. وضع يمناه على صدره، وتقدّم إلى أن توقّف وراء سائح قصير القامة، ونظر... في تلك اللحظة، ولأوّل مرّة في حياته، توقّف الزمن أمام عينيه!

* * *

Mirador San Nicolas 11 (مطلّ سان نيكولا ١١)

إنّه اسم المكان الذي وقف فيه الأمير دون أن يعلم أنّه يقف على واحد من أجمل المطلاّت في العالم. فُسحة من الأرض صغيرة، توازي في ارتفاعها تلّة الحمراء المقابلة وتطلّ على القصر مباشرة في منظر فريد.

وفي الناحية الأخرى كانت انعكاسات الشمس على الحمراء، وأبراج ثبتت رؤوسها، تطلّ من هناك كأنّها تنظر بدورها إلى السيّاح.

بدا القصر وكأنّه في حديث متّصل مع الناس. بدا كإنسان له عينان تنظران إلى محبّيه، وخواطر يتبادلها معهم، وذكريات تنبض بالحياة.

كان قصر الحمراء يتجلّى مستقلاً عن كلّ ما حوله في العالم. وتزيد من سحر المنظر الثلوج البيضاء على قمم سيرّا نيفادا وهي تشكّل خلفيّة أسطورية للقصر.

مضى السيّاح في حالهم، وتقدّم الأمير إلى حيث كانوا يقفون لينظر إلى الثلوج والقصر الغارق في أسراره... بقي صامتاً وجهاً لوجه أمام ساحره، حتّى أوشكت الشمس على المغيب. وقبل أن

يختفي القصر في عتمة المساء، كانت أضواء صفراء قد انطلقت من جذوع الأشجار المحيطة بأسوار القصر الحجرية، موجّهة الضربة القاضية إلى المشكّكين في قدرة الساحر المحتمي خلف قلاعه.

إنه المشهد ذاته الذي كان يراه في الصور وكتب المدرسة، الفرق الوحيد هنا أن الشجر يتحرّك!

رنّ هاتف الأمير، ولم يجب.

رنّ مرّة أخرى، ولم يجب.

كان رنين الهاتف المحمول يشبه سيفاً يقطع الخيط الدقيق الذي يربط الحقيقة بالأسطورة.

سمع الأمير من خلفه جلبة شبّان في سنّ المراهقة يتأبّط كلٌّ منهم ذراع صديقة له، ويحمل في إحدى يديه زجاجة بيرة في حجم عبوّة مياه معدنية كبيرة.

توزّع الجميع على جنبات الفسحة، كلٌّ ينفرد بفتاته يحادثها حيناً، ويقبّلها حيناً آخر.

تأمّلهم الأمير، ثمّ عاد ينظر إلى الحمراء، وحارسه واقف خلفه كتمثال نُصب هنا منذ سنوات.

رنّ الهاتف للمرّة الثالثة، فالتقطه الأمير من جيبه، وبقي مطبقاً عليه دون أن يردّ.

خيّم الظلام سريعاً، كأنّه استعجل انصراف النهار. وقبل أن يقفل الأمير عائداً تجاه وسط المدينة، نظر إلى هاتفه يستطلع من المتصل. إنّه رماح.

سلك الأمير طريقاً قادته سريعاً إلى ساحة المدينة. تناهى إليه

من بعيد صوت رماح وهو يقهقه. كان قد مضى عليه من الوقت نصف زجاجة! شجّعه عليها صخب المدينة، وسائق لا يفهم شيئاً من نِكاته العربية. ومع ذلك بقي رماح مصرّاً على أن يسمعها لا السائق وحده، بل كل من قاده حظّه السيّئ إلى الجلوس قُربه.

انضمّ الأمير وحارسه إلى رماح والسائق وطلب عشاءه. تحدّث مع جلسائه في ساحة المدينة أسفل التلّ في أمور كثيرة، لكنّ عقله كان هناك... في الأعلى. أمّا رماح فقد تفتّقت قريحته للغناء مع ما تبقّى من الزجاجة فأخذ يدندن لحناً يشبه الموتى.

أسكته الأمير بنظرة زاجرة، وطلب له قدحاً من القهوة.

اقتضت الخطّة المسائية، كما أرادها الأمير، جولة على بعض أزقّة المدينة قبل أن يعودوا إلى الفندق.

- «أشرب عشرة أقداح من القهوة... لا مانع. أمّا أن أسير على قدميّ إلى الفندق فلا». قال رماح بعد أن عجزت الكؤوس الخمس عن أن تُنسيه تجربة الصباح.

انصرف رماح مع السائق، ومضى الأمير وحارسه عبر طرق متعرّجة قصد منها اكتشاف ما أمكن من المدينة. اخترق الأزقّة بثبات العارف بها، وإن كان لا يدري إلى أين تفضي.

بقي وحارسه يسيران، يتحدّثان عن المدينة تارة، ويسرح خياله في القصر العالي تارة أخرى. بعد أن أعياهما المسير، سأل الأمير صاحب متجر عربي عن موقع فندقه، فأشار عليه أن امضِ حتّى الشارع الرابع ثمّ انحرف باتجاه اليسار، واصعد قليلاً... فيلوح لك الفندق غير بعيد.

انشغل الأمير في حديثه مع حارسه عن الشارع الرابع، فتاه

عن الفندق. ورغم إعيائه فقد أحس بلذّة الضياع في مدينة يمشي التاريخ في طرقاتها على قدميه. وما لبث أن وجد نفسه يتجاوز ساحة المدينة من طرفها القصيّ، ويقصد طريقاً صاعدة. بعد نصف ساعة بلغ المطل ذاته الذي وقف فيه ساعة الغروب، أمام قصر الحمراء: Mirador San Nicolas 11.

جلس هناك قرابة نصف ساعة يتأمل الأضواء التي تزيد القصر غموضاً، واضعاً يمناه على صدره كمن يؤدّي تحية مؤلمة!. سمع أصواتاً قادمة من القصر، خالها تتمايل في دلال مع السرو الملاصق للحيطان العالية كراقصة فلامنكو. أحسّ بالحمراء مضاءة له وحده. وبدا انعكاس الأضواء على وجهه كأنّه لون خُلق به. وحلّ سكون غريب. وفي هذه اللحظة تحديداً أصبح الأمير جزءاً من القصر!

في طريق العودة، وفي طرف شارع ضيّق طويل، رأى كنيسة تحمل حيطانها تاريخ أكثر من دين. تبدو من بعيد كمسجد مهجور، وتعود كنيسة من قُرب. فكّر الأمير وهو ينظر إلى برج الكنيسة يتخيّله مئذنة قديمة، كيف أنّ الانسان يقتل الإنسان منذ قرون من أجل بناء هو لذات الإله! أما حارسه الذي وجد سيّده يقف أمام البناء صامتاً فاكتفى بأن سأل «ما هذا.. متحف»؟

في الطرف المنتهي من الشارع انعطف الأمير وحارسه باتجاه الفندق. من ورائهما كان ضوء أبيض ينساب عبر الأزقة كغشاء من الدانتيل!

* * *

عندما دخل السائق إلى بهو الفندق في الصباح التالي، يحمل ثلاث تذاكر لدخول الحمراء، كان الأمير يجري محادثة هاتفية مع زوجته. أخبرها بشأن خططه بالنسبة إلى الأرض التي اشتراها. وطلب منها أن تفكّر في تصميم للقصر الذي سيُبنى على تلّة الرياض. وعدها بأن يشرع في البحث عن شركات عالمية حال عودته إلى ماربيا. «أريده شيئاً مميّزاً» قال مختتماً محادثته قبل أن يظهر رماح ويأخذ مكانه إلى جواره.

كان موقع الفندق لا يبعد أكثر من عشر دقائق سيراً على الأقدام إلى قصر الحمراء، إلاّ أنّ الأمير أشفق على صديقه الضخم من المشقّة، فأقلّتهم السيّارة إلى «بوّابة العدالة» المدخل الرئيسي للحمراء. كانت الساعة تشير إلى التاسعة والنصف صباحاً.

وقف الأمير في المكان الذي وقف فيه البارحة، أمام البوّابة العملاقة، والحجر المنقوش في الأعلى. ثمّ ولج الثلاثة إلى الطريق الداخلي الصاعد برفق تجاه الباحة الرئيسية التي تنتصف تلّة الحمراء.

- «ماذا يفعل هذا القصر القبيح هنا»؟ سأل رماح وأشار بيده

إلى القصر الأوروبي المربّع الشكل، قصر شارلز الخامس الذي بني ليطمس معالم الحمراء بعد سقوط المدينة في يد الإسبان. كان هذا القصر يخفي وراءه مدخل قصر الحمراء ومعالمه. بدا منظره شاذاً رغم ما فيه من حُسن صنعة وفنّ بناء. لكنّه مقارنة بالحمراء بدا متنافراً بطريقة بشعة. فكّر الأمير كيف أنّ الأديان تتجاور، وتتزاحم، ويهدّد بعضها بعضاً في الوقت ذاته، كما الحجارة هنا: حجارة شارلز، وحجارة الحمراء!

كانت التذاكر التي في حوزتهم تخوّلهم الدخول إلى أقسام قصر الحمراء الثلاثة: جنّة العريف، حيث الحديقة الملكية في الأعلى، ثمّ القلعة العسكرية للقصر إلى الغرب، ثمّ القصر ذاته في الجهة الشمالية.

ووفق التسلسل نفسه بدأت المجموعة جولتها.

لرجال ألهبتهم شمسُ الصحراء، وأفقدتهم الرمالُ الأبديّة فضيلةَ الألوان السبعة، كانت جنّة العريف، المرحلة الأولى من الجولة، تشبه تلك التي تصفها الكتب عن جنّة السماء.

إنّها حدائق كان ملوك القصر يستخدمونها للخلوة واستقبال الخاصّة. الأزهار والأشجار وحتى النباتات المتسلّقة، تبدو هنا وقد زُرعت بأيد آلهة إغريقية. ويتمازج خرير المياه ورائحة النارنج والياسمين يستشعر الزائر نشوة تشبه النبيذ المعتّق.

وقد ثمل الأمير بالفعل. فما كان ينطق ولا يرى سوى خليفة يجول في المكان يحادث وزيراً، أو يداعب حسناء إسبانية. كان الخيال معه يثمل ويرى!

نسمة تحمل حنان الربيع، وأشعّة شمس ناعمة الملمس، أعطتا الرجال خيالاً ثُلاثيّ الأبعاد، حتّى ليكاد أحدهم يمدّ يده مصافحاً يد الخليفة أو يشاركه مداعبات جِسانه.

لم يكن سحر المكان من صنع خيال كهذا، بل إنّ الخيال الساكن أصلاً في العقل العربي عن الأندلس كان يتجسّد هنا في أكمل صوره، ولو كانت زيفاً. فلئن جعلت الكتب العربية من الأندلس واحةً أسقطها الله من السماء للمسلمين على الأرض، فقد كانت جنّة العريف التصويرَ الحقيقي لهذا الخيال، ورمزاً لا جدال فيه لنُصرة الإله لهم وحدهم!

وقد جسّدت كلّ ذلك عبارة الأمير: «والله حرام.. لقد أضعنا كل هذا». قالها بصوت أتى من أبعد عُمق في داخله.

- «نعم.. صدقت يا طويل العمر» ردّ عليه حارسه وهو ينظر إلى سائحة مكشوفة الفخذين. أمّا رماح فما زاد أن سأل: «ماذا تقولون..»؟

مع أن جنّة العريف لا تحتاج إلى أكثر من نصف ساعة لمشاهدتها، استغرقت الجولة من الرجال ساعة ونصف ساعة. النصف ساعة الأولى لرؤية المكان، والساعة التي تليها لفُقّاعة الخيال التي عاشوا فيها.

في طريقهم خارج الحدائق، ماضين باتجاه القصبة العسكرية للقصر حيث المرحلة الثانية من الجولة، استرجع الأمير صورة المكان قبل ستّ مئة عام أو أكثر. استحضر الموتى من قبورهم. استحضر الملوكَ الذين ساروا حيث يسير هنا، استحضر وزراءهم،

وجواريهم. رأى أزياءهم كما كانت تصوّرها المسلسلات التلفزيونية الساذجة، واستمع إلى حواراتهم كما وضعها كتّاب السيناريو، واستعاد وهو مغمض العينين أشكال التيجان والجواهر كما صوّرها المخرجون.

استيقظ الأمير قليلاً من سكرة خياله، فوجد رماح يسير صامتاً كمن يساق إلى مقصلة. لقد كان هو الآخر، على الأرجح، يعيش هلوسات ما قبل موت الأندلس.

أمّا الحارس فلم يكن شيء ليبهره أكثر ممّا يردّده أميره، ولم يكن المكان ليعني له أكثر من حجارة قديمة وبضع أزهار يوجد الكثير منها في حدائق الرياض العموميّة. بل إنّ حديقة الأمير نفسه في قصر الرياض أكبر ممّا هنا وأجمل. وباستثناء البُعد التاريخي في الموضوع، فربّما كان تقدير الحارس صحيحاً، بل أكثرهم واقعية!

مضى الثلاثة يجدّون السير باتجاه القلعة. كان الطريق يمرّ بحدائق أخرى تحيط بها أشجار سرو عالية. لاحت لهم بعد أن تجاوزوها بعض المباني الحديثة إلى اليمين تجاورها مبان قديمة رُمّمت حديثاً. يقابلها من الجهة اليسرى أطلال مبانٍ كانت تتبع القصر، وتشكّل جزءاً من المدينة التي كانت هنا. أخذ الأمير الخارطة من يد حارسه وشرع يقرأ أسماء الأماكن. ثمّ اقترب من أطلالٍ مهملة إلى اليسار. وعلى لوحة صغيرة قرأ: Palacio Aben Cerrajes. وقال: «انظر يا رماح.. إنّها بقايا قصر بني سراج».

«آه.. أطلالهم» قال رماح واقترب «يبدو أنّ هذا كلّ ما تبقّى من هذه الأسرة بعد أن قُطعت رؤوس رجالهم في حديقة السباع».

أوضح رماح بنبرة ممثّل في مشهد سينمائي.

انتصبت هامات الرجال الثلاثة على الأطلال في ما يشبه وقفة حداد ينقصها لحن جنائزي. وما لبثوا أن انضمّوا إلى وفود السائحين.

إلى اليمين، طالعتهم كنيسة بُنيت حديثاً، كانت في ما مضى مسجد القصر. وخلف الكنيسة قرأ الأمير في خارطته عن روضة القصر «إنّها مقبرة بني الأحمر». قال بنبرة استعارها من رماح!

واصلوا المسير حتّى بدا الإعياء واضحاً على الرجل الضخم، وأخذ العرق يتصبّب من جبينه. وعندما بلغوا نقطة الانطلاق الأولى، قُرب قصر شارلز الخامس، ألقى رماح بجسده على مقعد خشبي تحت أشجار ظليلة، وجاوره الأمير، فيما مضى الحارس يُحضر بعض الماء.

نظر رماح إلى تذكرته التي قُصّ جزء منها عند دخوله جنّة العريف ثمّ أخذ يتلفّت يميناً وشمالاً كطفل تائه.

- «ألم نكن هنا»؟ سأل رماح.

- «بلى.. كنّا هنا. يبدو أنّ هذا المكان يتوسّط القصر، وهو نقطة الانطلاق إلى أيّ من جهاته» قال الأمير ونظر إلى اليمين وأضاف: «يفترض أن يكون القصر هناك والقلعة العسكرية إلى الأمام».

بعد عشر دقائق تطلّبتها راحتهم، ساروا باتجاه القلعة حسب الخطة، ليكون القصر نفسه آخر ما يرونه فيعطوه أكثر وقتهم. وفي طريقهم إلى القلعة اجتازوا بوّابة قديمة تشبه «بوّابة العدالة» في

الأسفل، لكنّها أصغر حجماً. قرأ الأمير اسمها في كتيّبه السياحي: «بوّابة الخمر».

- «جميل هذا الاسم..». علّق رماح مبتهجاً، كما لو أنّه مُقبل على مصنع نبيذ يملكه.

إلى يسار البوّابة حانوت يبيع التذكارات، وإلى اليمين حديقة مزروعة بالنارنج، في وسطها حانة استظلّ تحت سقيفتها سيّاح هرباً من شمس اشتدّ لهيبها. توجّه رماح مهرولاً نحو الحانة دون استئذان أميره. طلب كأساً من البيرة المثلجة، ثمّ أتبعها بأخرى..

أحسّ الأمير أنّه كان للحظة أمام خط فاصل بين حياة رماح وموته. كانت الكأس التي في يده هي ذاك الخط!

بعد أن ارتوى رماح وجفّ عرقه، دخلوا جميعاً إلى القلعة العسكرية، حيث كان يسكن الجند ويخزن السلاح. الأساسات هنا بُنيت كالقلاع الأخرى من صخر صلد، والحيطان من آجُر أحمر اختلط بالحجارة، وقد شقّها من أعلى شرخٌ كبير. «إنّه أقدم مكان في الحمراء». قال رماح وهو يمسح جبينه بمنديل ورقيّ اهترأ في يده. هزّ الأمير رأسه مؤكّداً وهو يقرأ في كتيّبه السياحي «نعم.. إنّه يعود إلى القرن العاشر».

في داخل القلعة طريق حجري يقود إلى سطحها. همّ الثلاثة بالانصراف عن المكان، لولا أنّ شيئاً دفع الأمير إلى أن يصعد إلى أعلى القلعة، وتبعه رفيقاه. وعندما توقّف ليلتقط أنفاسه وقد بلغ السطح، وجد نفسه أمام جرس يشبه جرس الكنيسة.. بل هو جرس كنيسة بالفعل!

- «ما يفعل الجرس هنا»؟ سأل رماح.

- «وضعه الإسبان بعد سقوط غرناطة». أجاب الأمير وهو يقرأ في كتيّبه.

من فوق هذا البرج، وباتجاه المدينة، تبدو غرناطة للناظر وقد تعانقت فيها السهول والجبال والثلوج في مشهد بديع. جال الأمير بنظره تجاه حيّ «البايسين» الذي أمضى ليلته وهو يصعد أزقته القديمة. «إنّها هناك..» قال محدّثاً حارسه «.. هناك»، وأشار بإصبعه إلى الساحة التي وقف ينظر منها البارحة إلى الحمراء!

لم تستغرق زيارة البرج أكثر من نصف ساعة. وهو لا يستحق أكثر من ذلك بأيّة حال. لكن أثناء خروجهم لفتت انتباه رماح أطلالُ غُرفٍ صغيرة تظهر قواعدها بشكل نافر. توقفوا أمامها، وأخذ الأمير يبحث في كتيّبه الذي يشبه دليل كشّافة ثمّ قال: «آه.. ستعجبك هذه يا رماح. إنّها غُرف كانت مخصّصة لخوابي النبيذ»!

كانت الساعة تقترب من الواحدة ظهراً، عندما اصطفوا مع جموع السائحين على مدخل المرحلة الثالثة والأهمّ من رحلتهم: قصر الحمراء.

عبروا نقطة الدخول بعد انتظار لم يطل أكثر من عشر دقائق، وسرعان ما وجدوا أنفسهم أمام غرفة صغيرة مزخرفة على الطراز المغربي، تجاوزوها إلى فناء كبير تتوسّطه بِركة طولية، ينساب إليها الماء بهدوء فلا يُسمع سوى خرير شبه متقطع. أمام البِركة مباشرة تنتصب أشهر قلاع القصر، «قمارش»، وفيها قاعة العرش.

- «هذا أقدم أجزاء القصر أيها الأمير» قال رماح في نبرة

مرشد سياحي «بناه أبو الحجاج يوسف الأول منذ ثمانية قرون. ولا يزال على حاله وجماله حتّى اللحظة. انظر أيّها الأمير.. انظر». كانت القاعة شديدة الارتفاع، حتّى إنّ رؤية سقفها الخشبيّ المنقوش تتطلّب من الزائر أن يرفع ناظريه أقصى ما يستطيع كما لو كان يقطف تفاحة فوق رأسه.

كانت الحيطان، المزدانة بزخارف من الجصّ المحفور، باقية هي أيضاً كما كانت منذ بنائها. أوراق شجر وورود وقصائد وآيات قرآنية توزّعت على أرجاء المكان. وداخل إطارات غلب عليها اللون الأزرق نقشت العبارة ذاتها «لا غالب إلاّ الله»، كما لو كانت حاجباً يلازم حيطان القصر.

– «لماذا تتكرّر العبارة ذاتها في كلّ مكان»؟ سأل الأمير.

– «إنّها جزء من غموض الحمراء.. لا أحد يعرف الحقيقة. هكذا يقولون.. أنا أقول إنّها تعويذة خاصّة ببني الأحمر» أجاب رماح، وأضاف في صوت مجلجل «قد تكون لعنتهم أيضاً»!

بالنسبة إلى زائر عربي، لا يُدرَك جمالُ المكان برؤية المحسوس، بل بتخيُّل اللامحسوس. وما كان ينقص الأمير شيء من خيال حتّى يحوّل اللامحسوس إلى محسوس مرّة أخرى، فيصبح قادراً على لمسه لا مجرّد رؤيته!

لسائح آخر، قد يبدو الحمراء قصراً جميلاً من غابر السنين، لا يشكّل فرقاً مَن بناه، من سكنه، ما فعل التاريخ به وما لم يفعل. فيبقى القصر، للسائح العادي، بلا خيالات قُربى تربطه به، بعكس الأمير.

من نافذة مُقرنصة، في قاعة العرش، حاول الأمير أن ينظر

إلى البيوت المقابلة للقصر على تلّة «البايسين» ذاتها. كان يبحث للمرّة الثانية عن المطلّ الذي قصده البارحة ينظر منه إلى القصر.

لم يرَه.. فغادر مع رفيقيه قاعة العرش، تاركين بعض من سكنوها في تأوّهات ندمهم.

غير بعيد من القاعة، وبعد اجتياز ممرّ جانبي آخر، لاحت «حديقة السباع» المشهورة بأسودها الاثني عشر وهي تحمل نافورة مياه رُخاميّة. كانت السباع قد عانت من عوامل الزمان، فاكتسب بعضها لوناً أخضر بفعل المياه والرطوبة.

– «أنت هنا تنظر إلى أشهر حديقة تاريخية أيّها الأمير..» قال رماح.

تأمّل الأمير أرجاء الحديقة. سار إلى الأمام، ثمّ تراجع قليلاً. ثمّ سار إلى الأمام ونظر إلى رماح وهو يشير بحدّ سيف على عُنقه. «نعم يا طويل العمر.. هنا قُطعت رؤوس بني سراج». وأضاف الكهل متباهياً بمعلومة لن يجدها الأمير في أيّ كتاب «وهنا تُسمع أصواتهم..»!

– «هنا..»؟

أومأ رماح برأسه وكرر «نعم.. هنا»!

كان الأمير ينظر باتجاه الباب الذي دخلوا منه لتوّهم إلى الحديقة، لا يفصله عنه سوى رماح. ومن فوق كتف رفيقه رأى اثني عشر سيّافاً يدخلون الباب ذاته. كانت لهم وجوه قديمة ورائحة تشبه التوابيت الخشبية.

* مضى رماح يسير مع ركب السائحين وجمد الأمير مكانه.

كان ينظر إلى الباب، ويصيخ السمع إلى صوت الماء الساقط من نافورة الحديقة، ويبحث عن صرخات تسبح في المكان. التفت إلى نافورة الماء.. فتناهت إليه أصوات تشبه الترانيم: «لا غالب إلاّ الله.. لا غالب إلاّ الله..» إنها تعويذة القصر تصدح.

التفت الأمير يبحث عن مصدر الأصوات. رآها تأتي من هناك، حيث الباب، يهتف بها اثنا عشر سيّافاً يسيرون تجاهه. كانت أصواتهم تعلو.. وتعلو.. وفي لحظة تحوّلت إلى صرخات وصليل سيوف. وحين بات السيّافون قريبين جداً من الأمير، تحوّلوا في طرفة عين إلى اثني عشر سبعاً يحملون النافورة الرخامية.

بقي الأمير جامداً في مكانه يرقب الماء المتطاير من فم السباع.. كان الماء يتحوّل إلى اللون الأحمر.. كانوا يبصقون دماً!

تمتم الأمير بعبارات غير مفهومة، كما لو كان يصلّي أو يردّد أدعية، ومضى يلحق بصحبه. قاده ممرّ من الحديقة إلى سكن الملك وحريمه، وهو أكثر أجزاء القصر تواضعاً، فالزخارف فيه قليلة باستثناء قاعة صغيرة في قلعة ملحقة بالسكن. ولئن أنعش الخيالُ الخصبُ نشوةَ الأمير، كما حدث منذ الصباح، فليس غريباً إنْ تراءت له هنا كوكبة أميرات في الحرير والسُّندس، يسمعن الموسيقى أو يرقصن، أو يدبّرن مكيدة تليق بملك!

من هناك دخل الجميع إلى حديقة داخلية أقل تشذيباً، لا تشبه في حجمها الصغير ما تُصوّره قصصُ الأندلس. ومنها اتجهوا إلى حمّامات القصر. إنّها أقبية يتسلّل الضوء إليها من كوّات زجاجية ملوّنة في الأعلى. هنا كان يستلقي الخليفة وحاشيته الوقت الذي

يشاؤون، تتداخل أحاديثهم مع ألوان الزجاج وضحك الغواني.

بخروجهم من أقبية الحمّام، تكون الجولة في قصر الحمراء، بكلّ أقسامه، قد انتهت. وهي لم تستغرق أكثر من ثلاث ساعات. ولولا الخيالات والرؤى لأمكن اختصار الزيارة إلى ساعتين أو أقلّ.

من زاوية بين شُجيرات صغيرة خارج القصر، وقف الأمير يتأمّل انعكاس حيطان القصر على بِركة ماء تطلّ على غرناطة من علٍ.

هبّت نسمة تراقص معها سطحُ الماء، فبان القصر متموّجاً، ثمّ متداعياً، قبل أن تختفي معالمه تاركة خطوطاً حمراء ذابت مع ارتجاجات الماء.

الماء خيال.. والقصر حقيقة! لا يمكن أن يجزم الأمير بذلك. فربّما كان الماء حقيقة والقصر خيالاً.

في داخله إحساس لا يعرف ما يكون.

أتراه مأخوذاً بالقصر؟

التفت الأمير إلى حيث اتّخذ رماح من حجر ضخم مقعداً يرتاح عليه.

- «هل رأيت ما رأيته في حديقة السباع»؟

- «وماذا رأيت أيّها الأمير»؟

صمت الأمير لحظة ثمّ رفع رأسه إلى الأعلى، وأجاب في صوت شارد: «كانت السماء بلون أحمر»!



- «متى سنعود إلى ماربيا»؟

سأل رماح وهو ينظر إلى نهدين امتلأ لذّة لنادلة مالت بنصف جسمها وهي تضع شراباً للرجال الثلاثة في ساحة بلازا نويبا. كانت تلبس كنزة مفتوحة الصدر تكشف نصف ثروتها.

بعد أن قضى على نصف كأسه سأل رماح مرّة أخرى: «متى سنعود إلى ماربيا»؟

بقي الأمير صامتاً.. يدخّن سيجارته، ويتأمّل جمرتَها.

وكطفل يرغب في العودة إلى لعبه، كان رماح يستعجل العودة إلى ماربيا، وإلى ملذّاته وكأس من الفودكا ينتظره. ولو علم هذا المتصابي ما ينتظره حقّاً، لآثر البقاء في غرناطة شهراً كاملاً، بلا حسناء ولا فودكا، على العودة إلى ماربيا.

- «سنبقى حتّى الغد». قال الأمير وهو يغرس سيجارته في منفضة أمامه.

نهض من مقعده، فيما اقتربت منه النادلة. نقدَها ثمن ما طلبوا، وأضاف إليها عشرين يورو كبخشيش يليق بقبّتيْ كنزتها.

مضى الثلاثة بلا اتجاه دون أن يجرؤ رماح على سؤال أميره عن سبب البقاء حتّى الغد.

- «هل ترى أيّها الأمير جمال الإسبانيّات.. إنّهن أجمل ممّا توقعت.. جمال بدماء عربية واضحة». ومضى رماح في ثرثرته وهم يجتازون شارع كران ڤيا Cran Via الأنيق بحوانيته الجذّابة.

- «هل هُنَّ عربيات الأصل»؟ سأل حارس الأمير باندهاش.

- «أعتقد أنّ نصفهنّ كذلك على الأقلّ. تعرفهنّ من شعورهنّ السوداء الطويلة وعيونهنّ الكبيرة. انظر.. انظر إلى تلك القادمة باتجاهنا» قال رماح.

نظر الجميع إلى القامة الرشيقة التي تخطو في اتجاههم، وقد أسدلت خُصلة من شعرها الأسود الطويل على كتفها اليُسرى، فيما انكشف فستانها حتّى أعلى فخذَيها.

- «هل هُنَّ نصرانيّات»؟ سأل حارس الأمير.

- «ألا ترى الصليب يزيّن صدور معظمهنّ.»؟ أجابه رماح مضيفاً: «انظر إلى الصليب القادم ما أجمله».

- «الله يلعنهنّ...» قال الحارس.

تجاوزتهم الفتاة تاركة عبقاً أنثوياً شهيّاً. نظروا ثلاثتهم إلى الوراء، وتمتم رماح «الله يلعنك أنت»!

كانت الساعة تقترب من الثالثة بعد الظهر عندما اجتازوا منعطفاً يقودهم إلى الفندق من الجهة الجنوبية. عند المنعطف انتصب تمثال لرجل في ثياب عربيّة. كان يحمل كتاباً مطويّاً، ويلوّح بيده في الهواء كمن يخطب في حشد أمامه. تحت التمثال

الذي علت أطرافه طحالب الشتاء الماضي كُتِب اسم صاحبه: «يهوذا بن طيبون».

– «من تراه يكون»؟ سأل الأمير، ونظر إلى رماح فرأى في عينيه سؤالاً مماثلاً.

بعد غداء خفيف في الفندق ذهب كلٌّ إلى حُجرته، ونام ملء جفنيه.

في السابعة مساء، نزل رماح إلى بهو الفندق وهو يتثاءب. لم يكن هناك غير السائق، وبعض سيّاح اختفى أحدهم تحت قُبّعة كبيرة. سأل رماح السائقَ عن الأمير فأخبره أنّه مضى مع حارسه باتجاه المدينة منذ ساعة. تضخّم رماح كعادته عندما يغضب.

اتصل هاتفياً بأميره. تحدّث إليه كطفل تُرك وحيداً في المنزل.

– «اطلب من بدرو أن يأتي بك إلى حيث كنّا بعد الظهيرة.. عند صاحبة النهدين». قال الأمير وأغلق الهاتف.

بعد دقيقة اتصل مكتبه في الرياض. كان ذلك الاتصال هو السادس بالأمير منذ الصباح، وللسبب ذاته: «شركة تصميم إنجليزية اتّصلت يا سموّ الأمير».

«شركة إيطالية لبناء القصور اتّصلت يا سموّ الأمير».

«شركة سويدية اتّصلت للمرّة العاشرة يا سموّ الأمير».

على الرغم من أنّ عزم الأمير على بناء قصر له على التلّ الذي اشتراه لم يعرف به سوى دائرته الضيّقة، فإنّ خبراً كهذا ما كان ليضلّ طريقه إلى مكاتب التصميم العالمية في الرياض أو أبعد منها بكثير.

– «خُذ أرقامهم، وأخبرهم بأنّي خارج السعودية وسأتصل بهم حال عودتي»!

ما كاد الأمير ينهي مكالمته الأخيرة، حتّى انضمّ إليه رماح وقد عاد إلى حجمه الطبيعي.

– «سنصعد إلى تلك الأحياء» قال الأمير وأشار بيده إلى «البايسين». إلى الساحة التي أطلّ منها بالأمس على الحمراء. صوتٌ هناك يناديه!

– «هل تحبّ الصعود معنا»؟ سأل الأمير رفيقه الضخم، وأضاف محذّراً: «إنّه طريق صعب».

– «هل سنصعد على أقدامنا»؟

– «لا.. سنأخذ طائرة مروحيّة»!

أخذ الثلاثة طريقهم صعوداً، عبر الأزقّة الضيّقة، فيما عاد السائق إلى الفندق.

بعد ربع ساعة أدركوا المكان.

– «أوه ما أجمله» قال رماح. «هو من هنا أجمل من داخله»!

– «نعم.. صدقت» قال الأمير وهو يمعن النظر أمامه دون أن يطرف.

بقي الثلاثة في تلك الساحة حتّى غربت الشمس مع العاشرة تقريباً. ثمّ مضوا نزولاً باتجاه المدينة القديمة، عبر أزقّة باتت تعرف الأمير ويعرفها. قادهم زُقاق صغير إلى شارع امتلأ بالحوانيت والمطاعم العربية المغربية. كان ذلك الشارع أكثر ما في غرناطة القديمة حيوية. اختار الأمير مطعماً مغربياً زُيّن على الطريقة

الأندلسية، له نوافذ تشبه المشربيّات الحجازية، مُشرعة على الشارع الصغير.

تقدّمت منهم نادلة قادتهم إلى حيث طلبوا الجلوس قرب النافذة الخشبية، وأعطت كلاً منهم قائمة الطعام وانصرفت. بعد لحظات تقدّم منهم شابّ مغربيّ عرّف نفسه بأنّه صاحب المطعم. كان الشابّ من مدينة العرايش الساحلية على الطريق بين طنجة والرباط. بدا بشوشاً وسرعان ما انطلق في حديث مع ضيوفه بعد أن عرّف كلٌّ منهم باسمه الأول.

حالما أنهوا طعامهم، عاد الشاب يحمل شاياً أخضر. وما لبث أن شاركهم الحديث، آخذاً موقعه قُرب الأمير.

- «ماذا تفعلون في غرناطة»؟

أخبره رماح عن السبب ولاحظ استغراباً على وجه الشابّ. قال لهم إنّ العرب، على أنواعهم، لا يزورون غرناطة.

- «ربّما لأنّ الصيف لم يحن بعد» أجابه رماح.

- «لا يزورونها في الصيف ولا في الشتاء. قليلاً ما نراهم هنا. الأوروبيون هم الأكثرية. يأتون من أجل الحمراء».

- «والعرب...»؟

- «لا يعرفون سوى ماربيا. أمّا غرناطة فلا يعرفونها ولا يهتمّون بها»!

- «هل تشعر بالحنين إلى المغرب»؟

- «في غرناطة لا نُحسّ بالغربة كثيراً. فنحن لا نبعد عن المغرب أكثر من ثلاث ساعات بالسيّارة. كما أنّ في غرناطة الكثير من المغاربة».

- «هل تحمل جنسيّة إسبانيّة»؟

- «نعم. فأنا متزوّج من امرأة إسبانية، ولي منها ولدان: محمد وبهاء».

- «وهل تحسّ هنا بأنّك في وطنك»؟

- «أنا سعيد هنا. لكنّي أزور المغرب دائماً. هنا وطني وهناك وطني أيضاً».

عندما سأل رماح صاحبَ المطعم إن كان يحسّ بوطنيته هنا بسبب انتمائه القديم إلى المكان فوجئ بردّ فعل الرجل. فلم يكن يخطر بباله سؤال كهذا.

- «لا أحد يفكّر في التاريخ اليوم. نحن نريد العيش مع الإسبان بسلام ومحبّة».

- «لكن ألا تفكّر في تاريخ العرب الذي كان هنا»؟

- «وهل كنت أعيش هنا في ذلك الوقت»؟

وكما لو كان مصرّاً على أن يحصل على الجواب الذي يريده سأله رماح:

- «أما لديك انتماء إلى تاريخك يا رجل»؟

- «نحن منتمون إلى الله تعالى.. نحن مسلمون إسبان من أصول عربية. هكذا نصنّف أنفسنا. نمارس شعائرنا دون أن يعترضنا أحد. الإسبان شعب طيّب ومتسامح». وتابع الشابّ حديثه وقد بدا عليه انزعاج من سؤال رماح «منذ ثلاثة أعوام أنشأنا مسجداً في أعلى البايسين. ارتفع عليه الأذان لأوّل مرّة منذ خمسة قرون. كلّنا شاركنا في بنائه، ولم يعترض أحد من الإسبان».

- «وهل تتمنّى لو عاد الاسلام إلى هنا.»؟ سأل رماح.

بعد تفكير سريع أجاب الشاب:

- «لا أعرف.. ربّما.. إنّ الله على كلّ شيء قدير»!

فيما كانوا يغادرون المطعم، وقد سبق الأميرُ وحارسه رماح، مال هذا إلى الشابّ يسأله في همس: «ألا تعرف ملهى قريباً مليئاً بالحسان»؟

* * *

في بهو الفندق، تجرّع رماح كأس الفودكا الرابعة دفعة واحدة، فيما راح الأمير ينفث دخان سيجارته على شكل دوائر ترتفع إلى الأعلى.. إلى الأعلى.. حتّى مستوى كتف النادل الذي وضع قدحاً من القهوة السوداء أمامه.

بدأت عينا رماح تحمرّان قليلاً. وبدا يشبه شيئاً لا يتحرّك. كالحجر الذي جلس عليه في الحمراء.

سأل وقد كادت تُطبق عيناه:

- «هل أعجبتك غرناطة أيّها الامير»؟

- «أعجبني القصر.»!

-«صدقت.. والله حلو» قال الحارس. وبجدّية ساذجة أضاف «والله لو كنت مكانك لاشتريته يا طويل العمر»!

- «يشتري ماذا أيّها الغبيّ»؟ سأله رماح.

- «يشتري الحمراء.. ذاك الذي على التل»!

أخذ الحارس ينظر إلى رماح في تحدّ، ثمّ أشار إلى أميره قائلاً: «طويل العمر إذا أراد شيئاً حصل عليه.. والله ولو كان طيراً في السماء»!

بقي الأمير مُنصِتاً يستمع إلى هذا الحوار المسرحي بين ممثّل ثمِل وآخر ساذج.

نظر إلى ساعته ونهض. كان الوقت قد تخطّى منتصف الليل بقليل. «سأصعد إلى حُجرتي». تبع الحارس سيّده. وبقي رماح على مقعده، وطلب كأساً آخرى.

لا يذكر رماح، وهو يستيقظ في التاسعة من صباح اليوم التالي، كم شرب البارحة. كان يضغط على صُدغيه من صُداع أصابه. ومن وراء غشاوة عينيه رأى السائق يجلس وحده إلى مائدة الإفطار.

– «أين الأمير هذه المرة»؟

– «خرج مبكراً. لكنّه اتصل منذ لحظة، وهو في طريقه إلى هنا».

كان الأمير قد استيقظ قبل الثامنة صباحاً وذهب بصحبة حارسه في جولة على المدينة القديمة.

سار الرجلان في طريق ملتوٍ يلتفّ حول القصر من أسفله، ندم الأمير أن لم يأتِه من قبل. عرف لاحقاً أن اسمه طريق الصينيين.

كان الهدوء يسود المكان، إلاّ من خرير مياه متدفقة، وزقزقة عصافير بعيدة، ووقع أقدام على الحصى كمن يهشم قشر بيض.

في ذاك الطريق تحديداً، رأى الأمير أربعة فصول مجتمعة: الربيع برائحة النارنج، والصيف بنقاء السماء، والشتاء بمنظر الطلع السابح في الفضاء كنُتف ثلج، والخريف بهيئة التاريخ المتدلّي

بخطوط سوداء من حيطان القصر الحجرية.

أسفل القصر، وفي المدينة القديمة، كانت معظم المحالّ ما تزال مغلقة. على مقرُبة من الحوانيت العربية، حيث كان الأمير يجتاز مسرعاً، تهيّأ له أنّه يسمع تِلاوة قرآن. عاد إلى الوراء قليلاً، فوجد ثلاثة أو أربعة حوانيت عربية تفتح أبوابها، قبالة المطعم المقفل الذي تناولوا فيه عشاء البارحة.

كانت تلاوة القرآن ترتفع من أجهزة تسجيل وضعت على مدخل كلّ حانوت عربي. أخذ الصوت يتغلغل في الأزقّة الضيّقة ويدخل كلّ بيت في المدينة القديمة. استغرب الأمير ونظر إلى حارسه متسائلاً:

– «لماذا يرفعون الصوت إلى هذا الحدّ»؟

تابعا مسيرهما إلى الساحة التي تطلّ على الحمراء. هنالك وقف الأمير قليلاً، يلقي نظرة أخيرة على القصر، وقفل راجعاً إلى الفندق.

قبل العاشرة، كان رماح يتصل بالأمير للمرّة الثانية، وبعد نصف ساعة اجتمعوا كلُّهم في البهو.

– «متى سنغادر أيّها الأمير»؟

– «ما رأيك لو بقينا ليلة أخرى يا رماح»؟. امتقع وجه الكهل، وضحك الأمير

– «كنت أداعبك.. سننطلق الآن».

قبل أن يغادروا غرناطة، جال بهم السائق على بعض الأماكن الأخرى في المدينة، خارج أحيائها القديمة، كما طلب الأمير.

- «إنّها تحتاج إلى خمسة أيام على الأقلّ، أو أسبوع ربّما. . ما رأيك يا رماح»؟

- «نعم. . صدقت أيّها الأمير». قال الرجل الضخم وهو يشدّ على أسنانه قدر ما استطاع!

بعد أن تجاوزت الرانج روفر آخر حدود المدينة سأل رماح:

- «كيف كانت جولة الصباح أيّها الأمير»؟

- «رائعة. . أتعلم؟ لعلّها كانت أجمل ما فعلت». ثمّ تمتم في حسرة من يترك حبيبته «سأعود قريباً»!

- «نعم. لا بدّ أن نعود مرّة أخرى» قال حارس الأمير واستطرد في زهو يحدّث رماح «لقد أخذ طويل العمر برأيي. . سيشتري الحمراء»!

نظر إليه رماح في ذهول واحتقار وسأل أميره:

- «أمجنون هذا»؟

- «بل هو أعقلنا». ردّ الأمير في جدّية وابتسامة هادئة.

- «ما. . ماذا. . »؟ تلعثم رماح «ماذا تعني أيّها الأمير»؟

* * *

ظلال طفل!

في اليخت الراسي في مرفأ ماربيا، امتلأت حجرة رماح بروائح أعشاب عطرية مختلفة، فيما ثلاث فتيات نصف عاريات يدلّكن جسده. كان جسداً أحاطه الشعر الأبيض، كغابة أمازونية جفّت قِمم أشجارها!

تزوّج رماح مرّة واحدة. كانت زوجته جميلة، لكنّها لا تجيد أكثر من ربط قِماط طفل. أنجبا ابناً واحداً يملك نصف صفات والده، على أنّه أكثر منه وسامة. بعدها بعامين، طلّق رماح زوجته، أو أنّها طلّقته، على حدّ قوله. ومنذ ذلك الحين وهو يعيش في ملذّات باذخة على اعتبار أنّه قضى أعواماً من الوفاء القسري!

كانت لرماح حجرة أخرى في منزل الأمير، أكبر من حجرة اليخت التي يتّخذها مقرّاً له، إلا أنّه ظلّ مصرّاً على السكنى هنا، وحده، مع الطاقم الملاحي، إصراره على أنّ مذاق المرأة ألذّ على صفحة الماء منه على اليابسة. كما أنّ «الفياجرا» يكون لها مفعول أسرع مع اهتزازات اليخت.

كانت يد رماح تعبث بشيء من جسد مدلّكته المنهمكة بجذع

الشجرة النائم أمامها، عندما قرع الباب قرعاً قوياً.

إنّه الصوت الأجشّ ذاته، قَدَرُ رماح، يناديه!

- «لعنة الله عليك.. ماذا تريد في هذه الساعة»؟

- «الأمير يطلبك»!

- «.. اذهب إليه وسأتبعك»!

- «تعرف الأوامر.. سأنتظرك إلى أن تمضي معي»!

- «لعن الله أباك». تمتم رماح ونهض عارياً إلاّ من فوطة تغطّي كوارثه. أشار إلى إحداهنّ كي تحضر إليه ثيابه، فيما ساعدته الأخرى على ارتدائها بسرعة. أفرغ نصف كأس الفودكا في فمه وأغلق الباب وراءه بعنف.

كان الأمير في صدر مجلسه وقد تجمّع حوله الرجال. بينهم مرافقون دائمون، جلسوا في أبعد مكان منه. ثمّ الأصدقاء الأقرب فالأقرب كلٌّ حسب مكانته. وكان مثل هذا البروتوكول أحد أسباب كثرة اعتكاف رماح في حجرته في اليخت مع أحلام شبابه ونسائه.

وإذا أخذنا في الاعتبار اعتقاده بأنّه أكثر ثقافة من الجميع، وأنّ ثقافته سطحيّة في أمور كثيرة، فإنه يبدو أكثر عبقرية من أرسطو مقارنة ببعض من يحيطون بأميره.

أشار سيّد المجلس على رماح بالاقتراب، وأجلسه غير بعيد منه. لم يعرف رماح سبب تلك التهاني التي كانت تنهال على أميره، من كلّ مَن في المجلس، كفاتح منتصر. وتطلّب الأمر بضع لحظات كي يستوعب أن التهنئة هي على قرار الأمير بناء قصر يشبه الحمراء على التلّة التي اشتراها في الرياض!

- «والله ما يستأهل الحمراء إلاّ أنت يا طويل العمر». قال أحدهم دون أن يعرف ما إذا كان الحمراء قصراً.. أم امرأة!

- «قرار حكيم يُعيد للعرب أمجادهم» قال آخر وقد عرف، على الأقلّ، أن الحمراء ليست امرأة.

ومن أبعد طرف في المجلس أتى صوت بلغ من ضخامته أن تدفق إلى الخارج عبر الباب:

- «من له عبقرية ليفكر بتراثنا الإسلامي سواكم يا طويل العمر»؟

أظهر رماح امتعاضاً مكتوماً، فيما بدا الأمير منشرح الصدر كما لم يره رماح من قبل.

لم يأتِ قرار الأمير بناء الحمراء في الرياض كإعادة اعتبار لتاريخ إسلامي أو عربي، ولا حتّى كتقديس لذكرى الأندلس. هو أراد ببساطة أن يبني الحمراء لأنّ القصر أعجبه.

أومأ الأمير إلى رماح أن يدنو منه وقال له بصوت خفيض:

- «أريدك أن تذهب غداً صباحاً إلى غرناطة، وتُحضر لي ما أمكن من كتب تُباع هناك عن القصر وتعود في اليوم ذاته. كُتب غير تلك التي اشتريناها». وبعد أن سحب نفساً من سيجارته أضاف: «هناك كتب مصوّرة لكلّ تفاصيل القصر.. حجمها كبير هكذا.. أحضر كلّ ما تجده منها».

أنصت رماح وهو يسأل نفسه كم كأساً من الفودكا شرب الأمير حتّى الآن!

في التاسعة من صباح اليوم التالي، كانت الرانج روفر تشقّ

طريقها باتجاه غرناطة، تحمل رماح وسائق الأمير. كان يستعجل العودة قبل نهاية اليوم. ليس طاعة لأميره، بل ليتسنّى له أن يُكمل تدليك جلده الذي يشبه جلد فيل عجوز!

وكما خطّط، عاد في الثامنة مساء. بل في السادسة إن شئنا الدقّة، لكنّه اختفى في حجرته حتّى الثامنة. عندما ذهب إلى المجلس لم يكن الأمير هناك، فقد كان مدعواً عند صديق له يسكن في المدينة، فترك الكتب التي أحضرها في المنزل ومضى.

بعد منتصف الليل بساعة طلب الأمير رماح. كان آخر شيء يتوقّعه أن يطلبه الأمير في هذا الوقت المتأخّر. ورغم ما به من تعب، مضى إليه على عجل، مستشعراً أنّ في الاستدعاء أمراً خطيراً. بَيد أنّ الأمر لم يكن خطيراً بقدر ما كان غريباً.

في المكتب الأبنوسي، وجد رماح أميره مهموم البال قلقاً.

- «خيراً يا طويل العمر»؟ سأل، وألقى بجسمه على مقعد يواجه الأمير.

- «أحسست بانقباض في صدري منذ أن وصلتني كتبك التي أحضرتها من غرناطة». حاول أن يلتقط أنفاسه بهدوء وتابع «بعد أن عدت إلى المنزل منهكاً، صعدت إلى حجرتي. لم أكن نائماً.. لم أكن نائماً على الاطلاق عندما تراءت لي ظلال طفل يبكي. كان أجعد الشعر. نعم.. كان في منزل أو.. أو..»!

- «خيراً إن شاء الله» أجاب رماح وهو يربّت، لأوّل مرّة في حياته، ركبة أميره. ثمّ سأل: «أهو طفل تعرفه»؟

- «اعتقدت ذلك أوّل الأمر.. اتصلت بأهلي في الرياض.

كلّهم بخير والحمد لله». ثمّ أخرج علبة سجائره وأشعل واحدة. نهض باتجاه النافذة ورآه رماح يرتجف قليلاً وهو يمضي في رواية رؤياه «لم يكن صوت بكائه غريباً.. أمّا المنزل فبدا يشبه.. بدا يشبه.. قصراً. نعم قصراً كبيراً. كان هناك فناء ونافورة وماء... ماء غريب اللون.. لا.. لم يكن ماءً لم يكن ماءً.. كان..» صمت وأطرق إلى الأرض ثمّ قال «كان.. دماً»!

- «إنّه كابوس يا طويل العمر.. مجرّد كابوس. يبدو أنّك أفرطت في عشائك».

- «قلت لك لم أكن نائماً..» أجابه الأمير في عنف «لم يكن حلماً.. كان شيئاً أراه أمامي.. كانت ظلالاً تشبه الخيال.. ظلالاً كدت ألمسها.. هل تفهم.. كدت ألمسها بيدي»!

لم يتفوّه رماح بكلمة، وطار ما كان في عينيه من نوم. في هذه اللحظة، لم يرَ نفسه مرافقاً، أو تابعاً، أو حتّى موظفاً لدى أميره. في هذه اللحظة تحديداً، أحسّ بأنّه صديق قديم له. وفي هذه اللحظة أيضاً، بلغ رماح أقرب نقطة تماسّ روحي مع أميره.

- «هل تريد أن تمشي قليلاً أيّها الأمير»؟

- «نعم.. أعتقد أنّها فكرة جيدة».

ساراً إلى المجلس، ومن هناك خرجا إلى الحديقة الخلفية.

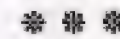
كانت الحديقة ساكنة إلاّ من صرصار ليل. وكانت رائحة ياسمين تملأ المكان. سارا في ممرّات من الحجارة المرصوفة بانتظام بين الحشيش الأخضر. كان يمكن رؤية الأغصان تتمايل مع الهواء على ضوء الحديقة الخافت. وعندما وصلا إلى نافورة الماء

الصامتة، تأمّل الأمير شكل تمثال الفتاة التي تعتلي صحن النافورة. ثمّ نظر إلى صفحة الماء فرأى انعكاس إكليل الغار الذي تمسكه الفتاة. سمعه رماح يتمتم في سرّه مستعيذاً بالله من الشيطان الرجيم

- «لنعد إلى الداخل. أشعر بأنّني أفضل. أمامنا يوم حافل غداً». قال الأمير وانصرف إلى حجرته. ومضى رماح إلى اليخت.

بعد أقلّ من نصف ساعة، كان رماح في طريقه، للمرّة الثانية، إلى الأمير الذي اتصل به يطلب حضوره على عجل إلى حجرة نومه.

- «إنّه هو.. الطفل الأجعد.. كان هناك». وأشار إلى الفراغ أمامه. بدت على الأمير علامات دهشة أكثر منها علامات فزع كالمرّة الأولى. «كان ينظر إليّ.. من حديقة داخلية في قصر كبير.. حديقة تتوسّطها نافورة ماء.. لكنّه.. لم يكن ماء..» ركّز نظره بعمق على رماح وقال كمن أدرك شيئاً فاته «الحديقة.. نعم.. نعم.. إنّها هي.. إنّها حديقة السباع في الحمراء»!



مضى على الأمير أسبوع منذ عودته من غرناطة. شغلته قصّة الحمراء، وارتباطات عمل، عن زيارة مدن أخرى في الأندلس، فارجأها إلى وقت آخر.

لم تتكرّر رؤاه التي أرعبته عن الطفل، بعد تلك الليلة، سوى مرّة واحدة ليلة البارحة. لكنّها لم تقلقه بقدر ما حيّرته.

في الصباح التالي، تجاهل المسألة كلّها، أو حاول، وعاد إلى انشراحه. أمّا رماح الذي تأخّر كعادته عن مجلس أميره، فلم يكن أكثر من شخير تتحرّك له صفحة المتوسط كلّها.

مع منتصف النهار كان الأمير قد أنجز أكثر أعمال ذلك اليوم. شجّعته نسمة لطيفة على التريُّض قليلاً بصحبة رفاقه في أحياء المدينة حتّى الظهر. كان يحتاج إلى رياضة كهذه دأب عليها بتكاسل من حين إلى حين.

على مائدة الغداء تجمّع أكثر من ثلاثين شخصاً، أحدهم نصف نائم. إنّه رماح.

أخذ الأمير، فيما هو يتناول طعامه، يتحدّث إلى رفاقه عن مخططه لبناء الحمراء في الرياض، وكيف يريده نسخة عن الأصل،

سيبني الشقوق، والشروخ، وقطع الفسيفساء المفقودة. سيبني الجصّ برسومه وألوانه التي بقيت والتي غدر الزمان بها. سيبني الحدائق والأطلال، حتّى ليظنّ الزائر أنّه في حمراء غرناطة، ولكن مع كهرباء وتكييف.

بينما الأمير ماض في سرد مشروعه، دخل حارسه الخاصّ ومال إليه هامساً:

- «رجل بالباب يريد أن يراك يا طويل العمر». نظر إليه الأمير، وقبل أن يسأل من يكون الرجل أضاف الحارس «يقول إنّ اسمه ابن برجان».

- «ابن برجان».. ردّد الأمير الاسم متعجّباً ومنكراً له. «وماذا يريد»؟

- «لا أعلم.. لكنّه يريد أن يراك شخصيّاً».

- «قل له أن يكتب لي بما يريد، وأعطِه رقم الفاكس»، وعاد إلى طعامه.

لم يكن الأمير فظّاً، لكنّه اعتاد، كما كثير من الأمراء، أشخاصاً يزورونهم بلا سابق إنذار، يحمل بعضهم أفكار مشاريع وهميّة، أو مشكوك في مردودها في أفضل الأحوال. بعض هؤلاء ما كانت لتنقصهم قوة إقناع. في نظرهم أنهم لن يخسروا شيئاً إن استثمروا بمال أمير في مشروع قُدّرت له الخسارة، كما أنّ الأمير نفسه لن يخسر مالاً أجهده تحصيله. من أجل أشخاص كهؤلاء كان الأمير يحذر من أي زائر غريب، ولو من باب المصادفة، سواء في الرياض أو ماربيا.

في السابعة من مساء اليوم نفسه، وبعد أن فرغ الأمير من بعض اتصالاته، توجّه مع بعض صحبه، باستثناء رماح الذي عاد إلى أعشابه، إلى شارع بورتبانوس حيث المقاهي تستعدّ لاستقبال روّادها.

جلسوا جميعاً في مقهى غير بعيد عن مرفأ اليخوت. وأخذ الأمير موقعه في منتصف دائرة مستديرة مواجهاً البحر والطريق العامّ.

وسط الأحاديث المكرّرة ذاتها، والتهنئة المعادة ألف مرّة بمناسبة قرار بناء الحمراء، كثاني حدث عالمي في أهمّيته بعد نزول الإنسان على القمر، وقف قُبالة الطاولة شيخ وقور المظهر، يلبس سلهاماً مغربياً ناصع البياض حسن الصنع، تُزيّنه تطريزات ذهبيه برّاقة.

- «إنّه الرجل الذي أتى ساعة الغداء يا طويل العمر» همس الحارس في أذن أميره.

كان الرجل قمحيّ البشرة دقيق الأطراف والأنف بارز الوجنتين. له لِحية بيضاء خفيفة، وعينان عسليتان هادئتان. يوحي مظهره بوقار يتناسب وعمره الذي يقترب من السبعين، تكشف عن ذلك جبهته التي تجعّدت كطين ناشف.

- «إنّه يشبهه كثيراً..» قال الأمير يحدّث نفسه ويتذكّر تمثال الرجل العربي الذي رآه في غرناطة!

- «السلام عليكم» قال الشيخ في هدوء وثقة.

- «وعليكم السلام أيها الشيخ» ردّ الجميع.

اقترب من الأمير مميّزاً إيّاه كصديق يعرفه منذ زمن طويل.

- «هل لي بحديث خاصّ معك أيّها الأمير».
- «هل أنت ابن برجان»؟
- «نعم.. هو أنا»! ردّ الرجل في تواضع.
- «تكلّم بما تريد أيّها الشيخ، فهنا أصدقاء يكتمون السر».

وأشار عليه الأمير أن يجلس بجواره.

جلس ابن برجان وضمّ إزاره بين ركبتَيه. قدّر الأمير أنّ في عروق الرجل دماء كريمة، وفي مُحيّاه نبلاً عريقاً!

تحدّث الشيخ بلُكنة مغربية واضحة المعاني:

- «لن آخذ الكثير من وقتك أيّها الأمير. لكنّني سمعت أنّك تريد أن تبني قصراً يشبه الحمراء»!

نظر الأمير إلى عينَي الرجل متفحّصاً ومستغرباً معرفته بالأمر، ثمّ نظر إلى بعض رفاقه كمن يقول هي أخبار الأمراء لا تخفى على أحد.

-«نعم.. سأبنيه ليكون مقرّاً لي في الرياض». وصمت لحظة ينتظر تهنئة الشيخ.. لكنّ الأخير لم يفعل، بل قطّب حاجبيه، ومال إلى الأمير قليلاً، وبنبرة ودودة وإن بدت آمرة قال:

- «لا تفعل أيّها الأمير»!

* * *

كانت شاشة التلفزيون العملاقة في المجلس الكبير تتقلّب بين مجموعة قنوات. تقابلها تماماً، لكن على مسافة بعيدة، يد الأمير تعبث بجهاز الريموت كنترول، فيما هو ساهم يفكر ونصف سيجارته قد سقط على الأرض رماداً.

مساء اليوم نفسه، بعد التاسعة بدقائق، دخل رماح الذي استيقظ منذ قليل.

ما كان لخبر ابن برجان أن يغيب عنه، فإنّ له من العيون حول الأمير، ما لهذا من عيون حول كلّ من يحيط به. وقبل أن تستقرّ فلقتاه على مقعد بجوار أميره كان قد طرح سؤاله الأول:

- «ما قصّة ابن برجان يا طويل العمر»؟

بقي الأمير يقلّب القنوات التلفزيونية، ودون أن ينظر إلى رماح أجاب:

- «هل وصلك الخبر بهذه السرعة»؟! ثمّ أضاف: «إنّه رجل غريب.. طلب أن لا أبني الحمراء».
- «وما علاقته بالحمراء، أهو قصر أبيه»؟
- «هل تغضب القصور من أحد»؟ سأل الأمير صديقه.

- «. . وهل يغضب الجماد من بشر»؟

- «وماذا عن اللعنات. . ألا تؤمن بها يا رماح»؟

- «أيّة لعنات»؟

- «لعنات. . كتلك التي تقرأ عنها في القصص الغريبة. ألم تسمع عن لعنة الفراعنة التي تصيب من ينتهك حُرمة موتاهم»؟

- «آه. . فهمت. نعم سمعت عن لعنات كهذه. لا أعرف ما إذا كنت أؤمن بها أو لا. . ممممم. . لم أفكّر في الأمر حقيقة». قال رماح وهو يمسح على شعره المصفّف بعناية.

وضع الأمير الجهاز من يده وثبّت عينيه في عينَي رماح وقال:

- «يقول ابن برجان إنّ القصر يأبى أن يقلّده أحد، وإنّ لعنة تصيب من يحاول أن يستنسخه، ولا ينبغي لي أن أبني قصراً يشبهه في الرياض، أو في أيّ مكان آخر في العالم».

- «وهل تصدق مجنوناً مثله؟ ومن يكون هذا الرجل حتّى يقول ذلك»؟ وبسخرية ترافقت مع ضحكة خفيفة أضاف: «أين هو هذا الذي له اسم العفاريت»؟ وتلفّت من حوله يبحث عنه بين الحاضرين!

- «انصرف. . قال ما قال وانصرف بعد أن طلبت منه ذلك» رد الأمير بنبرة شاردة، وأشعل سيجارة جديدة.

حاول رماح أن يغيّر الموضوع:

- «ألن تكون هناك سهرة الليلة أيضاً»؟ وهزّ كتفيه كراقصة في محاولة لإخراج أميره من أفكاره الغريبة.

- «سأخلد إلى فراشي باكراً. لديّ الكثير مما أعمله في الغد. سيأتي أيضاً ممثل شركة إسبانية. أريد أن أسأله عن الحمراء». قال الأمير، وأشار إلى مرافقيه من حوله «اسهر أنت مع الشباب. هيّا امضوا».

وقبل أن ينهض إلى حجرة نومه، التقط الريموت مرّة أخرى وأخذ يقلّب القنوات على غير هُدى. كان منظره مقلقاً. فمنذ عودتهم من غرناطة لم تسر الأمور على ما يُرام. رأى أحلاماً ورؤى مخيفة، والآن ابن برجان.

- «هل أنت على ما يُرام أيّها الأمير»؟ سأله رماح.

- «نعم. . أنا كذلك».

في الحقيقة لم يكن كذلك.

مضى رماح إلى فضائه الأحمر، مع اثنين من رفاق الأمير فقط، فمن قال إنّه صديق الجميع؟ أخذ يجوب بهما حانات ماربيا وروادها، كمن يتفقد أبناءه في أسرّتهم. بقي كذلك حتّى كاد الفجر يبزغ. وللحقيقة فإنّ رماح رغم سنوات كثيرة خلّفها وراءه يبدو أكثر نشاطاً وهِمّة من آخرين هم في نصف عمره. ولعلّ السرّ في شبابه أنّه لا يُخفي شيئاً في صدره، ولا يتحرّج من شيء أبداً.

عاد الرجل إلى حجرته على متن اليخت مصحوباً بفتاة تزن ربع فخذه. وقبل أن يبدأ القضمة الأولى، رنّ هاتفه. كان الأمير يطلبه على عجل.

«لكنّي أخذت الفياجرا للتوّ. .»! حدّث نفسه في انفعال، وارتدى ثيابه وانطلق.

في المجلس الكبير، رأى رماح أميره يجلس وحيداً قرب ضوء جانبي خافت.

- «إنّها الظلال مرّة أخرى.. والقصر». قال الأمير ما إن وقف رماح أمامه، ودون أن يرفع رأسه إليه.

- «بل هو ابن برجان لعنة الله عليه أربك تفكيرك».

- «رأيت الظلال قبل أن أرى ابن برجان يا رماح».. قال الأمير وأطرق في انزعاج شديد.

حاول رماح أن يُخرج أميره من كدره.

- «لو أطعتني الليلة لقضيت سهرة جميلة تبعدك عن ظلالك السوداء». وتابع بابتسامة ودودة: «سواد الليل يغمر القلب بلذّة بيضاء»!

ابتسم الأمير، وأشار إلى رماح أن يجلس قُربه. مضى الرجلان يتحادثان نصف ساعة في أمور شتّى. لم يكن هناك أحد سوى خادمتين تطلاّن من وقت لآخر تسألان الأمير إن كان يحتاج إلى شيء.

- «هل تعتقد أن ما أراه له علاقة بلعنة حقيقية»؟

- «لا أعتقد ذلك أيّها الأمير».

- «لماذا إذاً تعاودني الرؤى ذاتها بعد رحلة غرناطة؟ ولماذا تطالعني صورة طفل في حديقة السباع»؟

- «لعلّك مأخوذ بأسطورة القصر، أو لعلّه ولع زائد به أيّها الأمير. فلم أسمع عن لعنة تُصيب رجلاً من قبل، ولو بنى الأهرام نفسها».

هزّ الأمير رأسه مؤيداً، في تردد، كلام رماح.

قد لا يكون ثمّة تردّد، بل حيرة في تفسير ما يراه. وبدا أنّه بات مقتنعاً، بشكل غامض، أن الأمر يرتبط بالقصر القديم وقراره بناء مثله.

عاد رماح إلى حجرته، وقد أنسته رؤى الأمير فتاته والفياجرا التي ابتلعها لليلة حمراء «إنّها ليلة سوداء». قال وهو ينظر إلى الفتاة وقد نامت بثياب سهرتها، وتكوّرت على نفسها كطفل في حضن أمّه.

* * *

في العاشرة من صباح اليوم التالي، وجد رماح نفسه يقف مع بعض رفاق الأمير وهم يشدّون على يده يعزّونه بوفاة صديق له. عندما حان دور رماح شدّ الأمير على يده وهمس في أذنه: «إنّه الطفل الذي أخبرتك عن ظلاله»!

لم يفهم رماح شيئاً.

بعد أن أخذ الأمير موقعه في صدر المجلس ورماح إلى يمينه، نظر بتجهُّم إلى من حوله وقال:

- «كان لي صديق تربّى في البيت الذي كبرت فيه. كنّا أخوين تشاركنا الطفولة بكلّ ضروبها. لم نفترق إلاّ بعد أن تزوّج وابتُعِث إلى ميتشغان، في أميركا، ليتخرج كمهندس معماري. لم أره منذ وقت طويل». طأطأ الأمير رأسه قليلاً، ومضى يتحدّث في حزن «قالت زوجته إنّه كان يقود سيّارته باتجاه الخُبَر، قبل أن يرتطم بجمل أودى بحياته»! صمت لحظة ونظر إلى رماح يسأله بصوت خفيض «هل تعتقد أنّه قد يكون الطفل نفسه»؟

- «هل كان أجعد الشعر»؟

- «نعم.. في الواقع ليس تماماً. هل تعتقد أنّه أراد أن يبلغني رسالة ما»؟!

رأى رماح في سؤال أميره إيماناً بلعنة يطلّ شؤمها من بعيد..

- «رسالة مثل ماذا»؟

- «شيء له علاقة بالحمراء.. إنّه مهندس.. هل تذكر لعنة ابن برجان، والرؤى، والقصر الغاضب، والسباع»؟

- «هل تصدّق لعنة رجل له اسم العفاريت»؟ قال رماح في تهكّم. إلاّ أن تهكّمه لم يحل دون رعشةٍ سرت في أطرافه هو.

«لعنة» تمتم الأمير، واستعاذ بالله، ومثله فعل صديقه الضخم.

بعد أقلّ من ربع ساعة كان رماح يجوب طرقات المدينة برفقة سائق الأمير وحارسه، يبحثون عن صاحب الاسم العفاريتي.. ابن برجان، كما طلب الأمير. لكن لم يكن أحد منهم يعرف أين يبحثون. وأملهم أن يجدوا الرجل في أحد الأماكن العامّة قرب المقهى الذي حدث فيه اللقاء في شارع بورتبانوس.

جالوا في الشارع ذاته عدّة مرّات، بلا نتيجة!

ذهبوا إلى أبعد منه، بلا نتيجة!

ذهبوا إلى أبعد منه بكثير، وأيضاً بلا نتيجة!

بعد الظهر عادوا إلى منزل الأمير على أن يعاودوا البحث مع الغروب.

* قبل أن يدخل رماح إلى مجلس الأمير، استقبله أحد

المرافقين على الباب وهو يضحك من منظره المتصبّب عرقاً ويقول:

- «أين كنت يا رماح؟ من تبحث عنه موجود هنا منذ ساعة»!

هرول رماح باتجاه المجلس، فوجد شيخاً وقور الهيئة يجلس إلى جوار الأمير. ومع أنّ رماح كان قد جهّز دفعة من أسلحته ليطلقها على الرجل، ليس بسبب الخوف الذي أدخله في صدر أميره فقط، وإنّما لأهمّيته له، فقد عدل حتّى عن الكلام، مكتفياً بتحيّة تليق بشيخ له وقار ابن برجان.

كان الأمير قد ألغى كلّ ارتباطاته منذ الصباح، بما في ذلك لقاؤه مع المهندس الإسباني الذي طلب حضوره. فقد أرعبته أخبار وفاة صديقه، وألحّت عليه أفكاره في رؤية الشيخ المغربي.

أخذ رماح موقعه إلى يمين الشيخ الجالس إلى يمين الأمير. وسيسري الترتيب ذاته في الجلوس كلّما جرى لقاء يجمع ثلاثتهم!

كانت سحابة الحزن التي غطّت وجه الأمير في الصباح قد انقشعت بوجود الشيخ المغربي الذي أتى بنفسه إلى الأمير محاولاً إقناعه، مرّة أخرى، بالعدول عن بناء الحمراء!

- «ما اللعنة التي قصدتها يا ابن برجان»؟ سأل الأمير ضيفه دون أن يخبره بقصّة الظلال التي يراها ووفاة صديقه.

نظر الشيخ إلى شُعاع شمس يضرب أرضيّة المجلس وقال:

- «هل أعجبك الحمراء أيّها الأمير»؟

- «لقد أسرني».

- «وما أسرك فيه»؟

- «كلُّ ما فيه، ألوانُه، تشقّقاتُ الزمن على حيطانه، هيبته، حدائقه، كلّ شيء أيّها الشيخ».

- «الحمراء ليس مجرّد لون وحجر».

- «ماذا تقصد يا ابن برجان»؟

- «الحمراء أكبر من الحجارة التي رأيتها».

- «أتقصد أنّ ما رأيته على تلّة غرناطة ليس هو الحمراء»؟

- «إنّه هو، لكنّه أكبر من البناء الذي رأيته».

- «لست أفهم ما تقصده أيّها الشيخ».

- «الحمراء قصّة أكبر من حجارته وحوائطه..»! ووضع يديه على رُكبتَيه كمن هو في حالة صلاة «الحمراء قصر شهد زوال مُلك ونعمة. سكنته اللعنة منذ الحجر الأول. ومن يقلّده يُصب بلعنته».

- «ومن أخبرك بأنّ لعنة تصيب من يقلّد الحمراء»؟ سأل الأمير.

- «هل سمعت أنّ أحداً حاول أن يفعل ما تريد أن تفعله أنت»؟ وأضاف الشيخ في نبرة وادعة «لست وحدك العاشق للحمراء أيّها الأمير، لكنّك مثلهم لا ترى في القصر سوى حجارة وألوان».

كانت بديهة رماح حاضرة فعلّق بسرعة:

- «وما أدراك أيّها الشيخ إن كان هناك من بنى قصراً يشبهه على الأقلّ»؟

- «آه.. يشبهه ربّما، فالقصور تتشابه، لكن ليس نسخة عن

الحمراء. هذا قصر لا يُستنسخ ولا يُقلّده أحد، وإلاّ حلّ عليه غضبه»!

مصّ الأمير شفتيه ونظر إلى رماح، فردّ عليه الأخير بشربة ماء بدت معها لوزة حلقه كمصعد معطل.

مضى الشيخ يتحدث في عنفوان شاب:

- «طوال قرون، لم يقلّد أحد القصر».

أخفى الأمير توتّره بسيجارة أشعلها وقال:

- «من أخبرك بقصّة اللعنة أيّها الشيخ»؟

نظر ابن برجان إلى الأمير في هدوء وقال:

- «أنا من أسرة ذات أصول أندلسية، لكنّي ولدت في القصر الكبير شمال المغرب. هناك عشت طفولتي، ومنها انتقلت مع عائلتي إلى فاس وأنا في العاشرة. تعلّمت على يد أبي وبعض أئمّة القرويين. كنت أتعلّم مع طلبة مختارين بعناية، لم يبقَ على قيد الحياة منهم أحد. قرأت عِلم الأندلس، وعلمت أسراره، وما وراء الحمراء. إنّه علم لم تسجّله كتب».

قاطعه رماح في نبرة طفل يستمع إلى قصّة:

- «وما الذي تعلمه عن لعنة الحمراء..؟ أقصد كيف تكون؟ ما ملامحها»؟

- «ليست اللعنات وجوهاً تُميّز ملامحها. إنّها تنطلق من عِقالها كما ينطلق الشرّ من قُمقمه»!

أطرق الأمير لحظة وقال:

- «لماذا تريد إخافتي أيّها الشيخ»؟

- «الخوف حقيقة يصنعها الإنسان من وهمِه. وما رأيته أيّها الأمير في الحمراء وهمٌ، فلا تبنِ وهماً تحصد شرّاً من ورائه»!

وقف الشيخ يهمّ بالانصراف كمن أبلغ رسالته وانتهى، فقام معه الأمير وكلّ من في المجلس. أمسك بيد ابن برجان وطلب بقاءه ليسمع منه ما يبدّد حَيرته، ويزيح همّاً جثم على صدره منذ أيام. طلب أن يعدّوا مائدة الغداء. وبتودّد أخذ بيد الشيخ وسار به إلى الحديقة الخلفية.

أحسّ الأمير بقبضة الشيخ تشدّ على يده. واستدلّ منها على قوّة عزم وثقة.

- «أين تسكن يا ابن برجان..»؟

- «لي دار في غرناطة، وأخرى في المغرب».

- «ومع من تسكن»؟

- «مع ابن لي».

مضى الأمير يمشي برفقة الشيخ في الحديقة.

- «لماذا كابدت عناء البحث عني لتخبرني بأمر اللعنة يا ابن برجان، أيّ مصلحة لك في ذلك وأنت لم تعرفني من قبل»؟

- «المؤمن مؤتَمن على تبليغ ما انتهى إليه من عِلم. ولست أطلب أجراً إلاّ من الله». توقّف ينظر إلى الأمير لحظة وقال: «أنا لم أفعل ذلك من أجلك، فلو عزم غيرك على ما عزمت عليه أنت لفعلت الشيء ذاته».

كان رماح يسير خلفهما عندما أحسّ بجسده ينتفض مع صوت جَهْوَري نطق به ابن برجان فجأة:

- «الحمراء ليس هو القصر الذي تراه.. ليس هو الحجر والبناء. ليس هو الزخارف والأعمدة. إنّه غير ذلك تماماً، إنّه غير ما تراه. حتّى لو بنيته بكلّ تفاصيله التي تراها، فلن يكون كما تريد.. لن يكون»!

بقي الأمير صامتاً ينظر في ذهول وحَيرة إلى الشيخ وقد غطى شُعاع الشمس نصف وجهه، فبدا كرجل أحضرته الشمس من زمن قديم.

- «لكلّ مستحيل ممكن» قال الأمير وهو يربّت كتف ابن برجان. والواقع أنّه كان يربّت على نفسه من الداخل، يطمئنها، ويمنّيها. وبعد تردُّد سأل الأمير: «وما يكون الممكن في رأيك يا ابن برجان»؟

لم يجب الشيخ.

كان صمته محيّراً.

توقّف الرجلان قرب نافورة الفتاة في الحديقة الخلفية. فيما خدم الأمير يروحون ويجيئون وهم يعدّون المائدة.

- «ما يكون الممكن يا ابن برجان»؟ سأل الأمير ثانية.

- «أيها الشاب.. القصر الذي أعجبك بُني للخداع. فزاعة تخيف بها من لا تقوى على مواجهته. هذا التداخل بين القوّة والضعف هو ما بنى أسطورة الحمراء، وغموضه... ولعنته»!

على مائدة الطعام، لم يشأ الأمير أن يثقل على ضيفه، مفضّلاً التريث قليلاً.. قليلاً إلى ما بعد الغداء لا أكثر.

لم يأكل ابن برجان أكثر من وجبة طفل صغير. ومثله فعل

الأمير الذي شغله كلام الشيخ، فيما لزم رماح الصمت في سابقة تستحقّ التسجيل!

بعد الغداء جلس الأمير تحت كرمته. للحظة اكتسى وجهه بحزن عجيب. تذكّر صديقه الذي مات. لكن لم يلبث الحزن أن تراجع عندما أقبل ابن برجان يجلس إلى جواره.

أشعل الأمير سيجارة، وتناول قدحه من الشاي الأحمر.

- «لم تُجبني أيها الشيخ بعد»؟

- «عن ماذا أيّها الأمير»؟

- «ما دواء اللعنة»؟ للمرّة الثالثة يطرح السؤال ذاته، ولكن مع إصرار أكبر على سماع جواب هذه المرّة.

قلب ابنُ برجان شفتيه، وتمتم، ثمّ أخذ نفساً عميقاً، وصمت. كان يهمّ بقول شيء ما.

ترقّب الأمير ما سيقول الشيخ بنظرة كرّرت السؤال ذاته بإصرار يتعاظم كلّ مرّة.

- «الممكن هنا رهن حالة واحدة فقط..»! قال ابن برجان ورفع سبّابته.

- «وما هذه الحالة»؟ سأل الأمير مندفعاً بكل حواسّه.

- «أن يبني لك الحمراء في الرياض من بنى الحمراء في غرناطة»! قال الشيخ في صوت عميق سمعه كلّ من سكن الحمراء منذ ألف عام.

- «تقصد أن نبنيه وفق المخطّطات القديمة للقصر، وبطريقة البناء التي كانوا...»؟

- «لا.. لا..» قاطعه ابن برجان «ما قصدته أن يبني قصرَكَ الشخص نفسه الذي بنى الحمراء»!

اعتدل الأمير في جلسته وقد تحجّرت عيناه، وقال محتدّاً: «أتهزأ مني أيّها الشيخ»؟

- «لست أفعل.. قد سألتني وأجبتك.. من بنى الحمراء وحده القادر على إخراجه من لعنته»!

- «وفي أيّ مقبرة يمكن العثور على من بنى الحمراء»؟ سأل رماح ساخراً.

رماه ابن برجان بنظرة أستاذ يعنّف تلميذاً له:

- «لن تبحث عنه في مقبرة.. فلا يزال الرجل حيّاً»!

اضطربت نظرات الأمير، وتبعثرت الكلمات على لسان رماح. أحسّ للحظة أنهما إمّا مجنونان أو أنّ هذا الرجل هو المجنون.

وليتأكد أنّ ما يسمعه حقيقة سأل الأميرُ الشيخَ:

- «أتقول إنّ من بنى الحمراء، والقادر وحده على إخراج القصر من لعنته، هو إنسان لا يزال على قيد الحياة حتّى الآن»؟

أومأ ابن برجان برأسه

- «نعم»!

- «وكم عمر رجل كهذا»؟

- «لا يعلمه أحد. قال والدي إنّ عمره يومَ رآه كان ستّين عاماً. لكنّ شيوخاً تعلّمت عليهم قالوا إنّه أكبر من ذلك بكثير، ثمان مئة عام أو يزيد»!

أحسّ الأمير بالأفكار تلطمه كأمواج ثائرة، وألجمت الحيرة لسانه. أسند جبينه إلى يمناه، لا يعرف أيكذب الرجل أم يصدق، وندت عنه تنهيدة، ثمّ رفع رأسه باتجاه الشيخ وسأل:

- «هل لهذا الرجل من اسم»؟

لمعت عينا ابن برجان.. وبعد لحظة صمت أجاب بصوت متهدّج:

- «اسمه سلاّم»!

* * *

كان يمكن للقصّة أن تنتهي عند هذا الحدّ. إذ بدا ابن برجان كمن يهذي بتخيُّلات تاريخية، كما قال رماح ساعة اختلى بأميره.

على الرغم من أنّ أسبوعاً آخر قد شارف نهايته منذ رسا اليخت في ماربيا، ومع حاجة الأمير إلى العودة للرياض، فقد آثر البقاء بضعة أيام أخرى.

كان إصراره على بناء قصر الحمراء في الرياض، مع الخوف في الوقت ذاته من لعنة تصيبه، قد أوصله إلى شعور غامض بأنّ الله تعالى قد أرسل ابن برجان ليدلّه على الطريق الأمثل لتحقيق ما يريد. بل إنّه تصوّر الأمر معجزة بأثر رجعي منذ قرون، غير مُبالٍ بمحاولات رماح ثنيه عن تصديق الشيخ المغربي.

ونظراً إلى البُعد التاريخي لما في عقل الأمير عن الأندلس، لم يكن غريباً أن يطلب إلى ابن برجان أن يحلّ عليه ضيفاً طوال الأيام التي سيقضيها معه في ماربيا. فقد ظهر له أنّ الرجل يعرف أكثر مما قال، وهو في حاجة إليه. وأنّ قصّة اللعنة، وإن لم تكن حقيقة، فقد تقود إلى ما هو أكثر إثارة وفائدة من بناء قصر الحمراء في الرياض!

كان يعتقد أيضاً أنّ سلاّم الذي أخبره عنه الشيخ ما هو إلاّ

رمز إنسان، وليس إنساناً حقيقيّاً يعيش منذ مئات السنين. كان على الأمير أن يكون أكثر قدرة على تمييز الجدّية في صوت ابن برجان ليدرك أنّ الرجل لم يكن يقصد إنساناً رمزياً، بل إنساناً من لحم ودم!

لم يدرك الأمير، حتّى اللحظة، ما كان ينتظره من مفاجآت!

أمّا رماح فقد أظهر حيرة وارتباكاً أعجزاه عن تقدير أين تسير السفينة. ومع أنّ الأمير توقّع من رفيقه الضخم أن يعادي الشيخ أو يتّهمه بالجنون، وقد فعل، فإنّ رماح ما لبث أن بات مأخوذاً، هو أيضاً، بنشوة غموض ابن برجان نفسه.

الفارق بين رماح وأميره، أنّ الأول لا يأبه للحمراء، بل لقصة يعيشها تشبه أساطيره المجنونة التي يتفنّن في إلقائها على مستمعيه!

أضف إلى ذلك أنّ ابن برجان بدا كعالم حقيقي بالأندلس ماضيه وحاضره، وبكثير من أسراره التي يجهلها كتّاب التاريخ أنفسهم. وهو ما كان يفتقد إليه رماح وإن ادّعى عكس ذلك. وعلى ذلك فإنّ ابن برجان، على خطورة ما قد يكشفه من جهل رماح، قد يكون خير غطاء لهذا الجهل.

على أنّ رغبة الأمير الملحّة في بقاء ابن برجان في ضيافته، تعارضت مع رغبة الأخير في ألاّ يطول مقامه دونما حاجة تدعوه لذلك. وما لم يدركه الشيخ أنّ القصّة التي رواها عن الحمراء، ولو في كلمات قليلة غامضة، لم تكن لتمرّ مروراً عابراً على أمير لا تنقصه العزيمة والمادّة لتحقيق ما يريد.

- «ستبقى ضيفي أيّها الشيخ، ولك ما تطلب حتّى تغادر ماربيا». قال الأمير وأشار على أحد مرافقيه أن يجهّز مكان إقامة الضيف، ويسهر على خدمته.

مضى ابن برجان إلى حُجرة خُصّصت له قُرب مكتب الأمير في الطابق الأرضي. كانت حجرة كبيرة، يتوسّطها سرير ضخم، تغطّيه مُلاءات من حرير بلون الستائر. وفي طرف الحجرة مكتب صغير على الطراز الفرنسي القديم، أمامه مقعدان من الجلد الأسود، بينهما قطعة سجّاد حريرية على أرضيّة صُقل خشبها الثمين بعناية.

بعد أن توضّأ ابن برجان في حجرته وصلّى، عاد لينضمّ إلى الأمير تحت الكرمة. جلس على مقعد تكتنفه وسائد مقلّمة بخطوط زرقاء وبيضاء، وهما اللونان المفضّلان للأمير. وعلى طاولة صغيرة تتوسّط المكان وُضِعت صينية فضّية كبيرة امتلأت بالفاكهة.

بدت بشرة ابن برجان أكثر حُمرة ممّا كانت عليه أوّل ما وفد على الأمير. وقد تكشّفت عيناه تلك اللحظة عن صدق وثقة، بقدر ما أخبرت الأمير بفطنة صاحبها.

لاحظ الأمير على ضيفه أيضاً أنّه لا يضع ساعة في معصمه، ولا يضع أيّة قطعة من معدن تربطه بشيء عصري. لم يكن هناك سوى خاتم قديم من فضّة يحمل حجراً نافراً من العقيق. أحسّ الأمير أنّ الخاتم لا ينتمي إلى هذا الزمان.. كما هو الرجل الذي يلبسه. وتخيّل أنّه ربّما رأى الرجل يسير ذاك المساء في ضباب أزقّة البايسين في غرناطة.

لم يدر حديث كثير عن الحمراء أو سلاّم، حتّى تلك اللحظة على الأقلّ. كان الأمير يحاول استيعاب ما قاله ضيفه دونما استعجال. ورويداً رويداً وجد نفسه يحادثه عن الأندلس، والحمراء، وسلاّم.

- «إن كان التاريخ صادقاً فيمكن أن يكون كاذباً ومضلّلاً بالقدر ذاته». قال ابن برجان مُعقّباً على قول رماح بأنّ «تاريخ العرب في الأندلس شيء عظيم».

لم يفهم الأمير ما قصده الشيخ: أهو عشق للتاريخ أو رفض له؟

- «ألا تحبّ التاريخ يا ابن برجان»؟

«لست أثق به..» وقبل أن يسأل الأمير مستوضحاً تابع الشيخ «يصدق التاريخ في البدايات، أمّا النهايات فأمر مختلف. البدايات تأتي وفق إرادتنا، وتنتهي وفق إرادتها هي، لذلك نعيد كتابتها كما نريد نحن لا كما حدثت بالفعل». وفيما هو يقلّب نظره بين رماح والأمير ختم بالقول «ليس التاريخ توثيقاً يُعتدّ به لما حدث، بل توثيق لما نتمنّى أن يكون قد حدث»!

لم يكن قول ابن برجان ليصدر عن شخص معتوه كما ظنّ الأمير للحظة، ما دفعه بكلّ جوارحه إلى تصديق ما يقول الشيخ، كل ما يقول، بما في ذلك أمر سلاّم.

أحسّ الأمير بحاجته إلى قيلولة جسدية وذهنية. فسأل ضيفه إن كان يرغب في الراحة.

- «لست معتاداً النوم أثناء النهار». أجابه باسماً.

مضى الأمير إلى مخدعه حيث أمضى ساعة تقلّب فيها دون أن يغفو. وما لبث أن نزل إلى مكتبه واستدعى ابن برجان ورماح اللذين كانا يتحدثان في المجلس الكبير.

«أغلق الباب» قال الأمير لخادم وضع طبقاً من الحلوى والشاي على طاولة في ركن المكتب.

جلس ابن برجان بين الرجلين. عندما أشعل الأمير سيجارته وأخذ يعدّ في رأسه أسئلة كثيرة، بدا الشيخ كمتّهم تُحقّق معه الاستخبارات في مسلسل عربي!

* * *

قاطعت اتصالات كثيرة خلوة الأمير بالرجلين. وامتدّت آخر محادثة هاتفية أكثر من ربع ساعة لم يزد فيها عن «نعم.. لا.. حسن.. أرسله لي.. مع السلامة».

أقفل هاتفه، وعاد إلى رفيقيه.

أهو سحر الحمراء أو ابن برجان، أم هي حكاية سلاّم الذي بُعث من رماد التاريخ، ما استهوى الأمير ليطفئ هاتفه تماماً، وهو الذي ما فعلها مذ لامست يده جوّالاً؟! فكّر رماح في الأمر وهو يرشف من شاي برد أمامه.

أطلق الأمير زفرة خفيفة ودفع بظهره إلى قائم مقعده. أسند ذقنه إلى قبضة ساعديه ونظر إلى ابن برجان

- «هل رأيت سلاّم بنفسك أيّها الشيخ»؟

- «عرفت بأمره من والدي أولاً. انتقلت إليه أسرار الحمراء من علماء في القصر الكبير بالمغرب. وقد كان لهؤلاء عِلم بأسرار الأندلس نقلوه معهم»!

وقبل أن يعيد الأمير السؤال ذاته، واصل ابن برجان «كان عليّ أن أقطع شوطاً كبيراً من العلم قبل أن أعرف بسرّ سلاّم».

- «إن كان لا يزال على قيد الحياة يا ابن برجان، كما تقول. . فأين هو الآن، في غرناطة أم المغرب»؟

أشار ابن برجان بيده نافياً.

- «لا أيّها الأمير. إنّه ليس في غرناطة. آخر من شاهده قال إنّه رآه بالقرب من زاوية الرجال السبعة في القصر الكبير في المغرب».

- «ومَن آخر من شاهده»؟

- «أبي. . كان ذلك قبل أن يتوفّاه الله منذ خمسين عاماً».

تداخلت أفكار كثيرة في رأس الأمير ولم يكن يعرف ما عليه أن يفعل. قطع ابن برجان حيرة أفكاره وهو يقول: «ابحث عن سلاّم أيّها الأمير. . ابحث عنه. هو وحده من يحرّر القصر من لعنته»!

ربّت الأمير رُكبة ضيفه وقال في تأدّب جمّ:

- «لن أعثر عليه من دونك»!

هزّ الرجل رأسه موافقاً.

- «لكن عليّ العودة إلى غرناطة أوّلاً».

- «يرافقك سائقي أيّها الشيخ إذاً، ومعه تعود»!

نهض الأمير وغادر مكتبه.

داخله إحساس بأنّه عندما يغلق الباب من ورائه سيستفيق من حلم غريب.

. . لم يكن الأمير يحلم!

* * *

في مساء اليوم ذاته، وفيما الأمير مُستلقٍ على مقعده في الحديقة الخلفية، تراءت له ظلال اضطرب لها قلبه. اعتقدها للطفل الذي كان يراه. لكنّها أكبر من حجم طفل. . كانت بحجم جمل يشبه رماح.

تداخلت أصوات كلاب من حديقة مجاورة مع صوت آخر عصافير المساء، وهذر رماح!

بقي الأمير شارداً في مقعده، حين انعكست على صفحة وجهه أضواء الحديقة التي أشعلت للتوّ.

أخذ رماح يراقب شرود أميره. كانت قد مضت أربع ساعات منذ أن غادر ابن برجان إلى غرناطة.

- «هل تعتقد أنّه سيعود»؟ سأل رماح

- «سيفعل». أجابه الأمير ونهض يسير حتّى النافورة الرخامية ينظر إلى مائها المتساقط في هدوء ويلمس صدأ على حافّتها.

- «ماذا إن لم يعد»؟

نظر الأمير إلى رماح صامتاً للحظات، ثمّ قال وهو يفرك إصْبعه من أثر الصدأ:

- «أعطيت السائق عشرة آلاف دولار يدفعها لابن برجان حال وصوله غرناطة. إن أخذها كان طامعاً بنا أكثر منه ناصحاً لنا. عند ذلك أعرف أن الرجل قد خدعنا. بذلك أكون قد تعلّمت درساً جيّداً بمبلغ زهيد، وأمضي في ما عزمت عليه». وتابع في زفرة كمن نفد صبره «يستحق الحمراء كل جهد. سيكون قصراً لا يملك مثله أحد».

كان الأمير واثقاً بما يفعله، إلاّ أنّه يجهل ما هو مُقدم عليه، قدر جهله بحجم ما يُنفقه على أكثر من ثلاثين مرافقاً دائماً لا يبخلون على أنفسهم بشيء على حسابه!

- «عندما أفكّر في الأندلس.. أحاول أن أسترجع صوراً كثيرة لما قرأت فأجدني لا أذكر شيئاً. أحياناً أسأل نفسي ما فائدة أن تقرأ ما لا تلبث أن تنساه»؟

أجابه رماح بابتسامة ماكرة:

- «لكي تنساه»!

- «ماذا.. ماذا قلت»؟

- «قلت إنّه لولا الكتب التي نقرأها لما تعلّمنا النسيان. فماذا سننسى إن لم نقرأ شيئاً نحفظه»؟ واختتم بحكمة ذات منطق غريب عليه «النسيان نعمة.. والكتب تهبنا هذه النعمة».

- «ظننتُك ثمِلاً يا رماح.. هل أنت كذلك»؟

- «كيف الطريق إلى الثمل وابن برجان شغلنا عن كلّ شيء». أراد بذلك أن يقول «أنت أيّها الأمير شغلتنا عن كلّ لذّة من أجل حمرائك».

- «لك عقل يعمل جيّداً إن ثمِل.. يجعلك فيلسوفاً أيّها الضخم»!

قبل منتصف الليل عاد سائق الأمير وحده دون ابن برجان. وقبل أن يتفوّه بكلمة، قدّم للأمير ظرفاً فتح أحد طرفيه. ما زالت العشرة آلاف دولار كاملة في داخله.

- «رفض أن يأخذها» قال السائق.

تناول الأمير الظرف.

- «وأين ابن برجان»؟

- «قال إنّه سيبقى في غرناطة يرتّب بعض شؤونه، ثمّ يعود».

- «ولماذا لم تنتظره»؟

- «لقد رفض».

مال السائق في انحناءة خفيفة وانصرف.

تبسّم الأمير وهو يحمل الظرف يلوّح به أمام وجه رماح.

- «ألم أقل لك إنّ الرجل صادق»؟

- «نعم.. نعم..» تمتم رماح!

في اليوم التالي، وقبل ساعة الغداء، ازدحم مجلس الأمير بضيوف كثر ومرافقين. امتدت أحاديثهم حتّى انقضى الغداء الذي لم يشارك فيه رماح. إذ لا يزال الوقت مبكراً بالنسبة إليه بعد أُمسية يعلم الله أين قضاها وكيف.

أمّا ابن برجان، فلم يسمع الأمير خبراً عنه. ومضى اليوم الأول، فالثاني. وفي صبيحة اليوم الثالث، بدا على الأمير قلق واضح. لم يكن قلقه بسبب غياب ابن برجان بقدر ما كان بسبب

حيرته في ما ينبغي أن تكون عليه خطوته التالية. هل ينسى أمر ابن برجان ويعود إلى الرياض ليشرع في بناء قصره، أم ينتظر يوماً آخر أو يومين. وزاد من قلقه أنّه لا يجد وسيلة اتصال بالرجل، فلا هو يملك هاتفاً، ولا السائق يعرف عنوانه، فقد أنزله في ساحة المدينة القديمة واختفى في أحد أزقّتها.

جاهد الأمير في انتظار خبر عن الشيخ، فأزجى الوقت منصرفاً إلى بعض أعماله، وجولات بين حين وحين على ميناء المدينة ومقاهيها.

- «أعرف أنك قلق يا طويل العمر». قال رماح بينما هو يسير بجوار أميره ذاك المساء على امتداد شارع بورتمانوس.

- «إن تأخّر حتّى الغد، تذهب إلى غرناطة للبحث عنه»!

نظر رماح إلى السماء وتمتم بدعاء كي يظهر الرجل، ولو ميتاً.

قبل أن تغرب شمس ذلك اليوم، وبينما الأمير يهم بدخول مقهى اعتاده، أتاه اتصال من عامل الهاتف في منزله. «أنا قادم الآن» كانت العبارة الوحيدة التي نطق بها الأمير قبل أن يقفل عائداً إلى المنزل. كانت رسالة عامل الهاتف مقتضَبة: «وصل ابن برجان»!

* * *

دبّت جلبة في أرجاء المنزل بعد أن طلب الأمير أن يعدّوا مأدبة عشاء تكريماً للشيخ. وبعد العشاء الذي حال مطراً، هطل فجأة، دون تناوله في الحديقة، وضع ابن برجان على طاولة صغيرة أمامه لفائف قديمة، وكتاباً مهترئ الأطراف.

«إنّها ثروتي التي جمعتها طوال حياتي. وهي سبب إبطائي عليك أيّها الأمير». قال الرجل وهو يتلمّس تلك اللفائف بحرص من يلمس جبهة طفل حديث الولادة «بعضها عن الحمراء، وبعضها الآخر فيه أسماء أماكن ورجال. أحضرتها علّها تقودنا إلى ما نسعى إليه».

كان الأمير سعيداً بعودة الرجل الذي ازداد وقاراً بكتبه وحُلّته المقصّبة النظيفة. وعندما عاتبه بصوت خافت على رفضه أخذ المبلغ من السائق، علّل ابن برجان ذلك بقوله: «لم أفعل ما أستحقّ المال من أجله». وشبك أصابعه بطريقته المعتادة «كما أنني لست في حاجة إليه».

- «إنها عشرة آلاف دولار يا ابن برجان، هدية منّي إليك، ولا حاجة لأن يكون هناك سبب للهدية».

ندّت عن ابن برجان ضحكة رقيقة وهو يسمع بقيمة المبلغ «إنّه أكثر ممّا بقي لي من عمر»!

ربّت الأمير على يده في رفق.

- «أطال الله في عمر شيخنا. لك وجه يمتلئ حياة وضياء».

ربت ابن برجان بدوره على يد الأمير وأجابه:

- «الإنسان كالشمعة.. كلّما ارتفع نورها أسرعت إلى نهايتها»!

نظر إليه الأمير وحاول أن يبتسم!

* * *

كما حدث في المرّة الأولى، انصرف الرجال الثلاثة إلى المكتب الأبنوسي، يتبعهم خادم يحمل شاياً أخضر أُعِدّ على الطريقة المغربية كما طلب الشيخ.

توجّه كلّ واحد منهم إلى المقعد الذي جلس عليه في المرّة السابقة. وكان ابن برجان يحمل في يده كتبه القديمة، رافضاً أن يحملها غيره. جلس الأمير في مواجهة الرجلين. ثمّ أزاح مقعده قليلاً ليكون مواجهاً تماماً لابن برجان. قدّم الشاي بيده إلى الشيخ وسأله:

- «حسن، وماذا الآن»؟

وضع ابن برجان الكتب على طاولة جانبية. ثمّ نظر إلى الأمير وتحدّث في صورة تتلاءم وانحناءة خفيفة من ظهره.

- «منذ أن تركت ماربيا وأنا أبحث في كتبي عن سلاّم». تلت عبارته لحظة صمت إلاّ من هدير هواء يصدر من فتحة تكييف بأعلى الباب، ثمّ مضى في حديثه «قد يكون المشوار عسيراً أيّها الأمير، وربّما يطول بعض الشيء، وقد لا نصل إلى نتيجة»... وقبل أن يسمع تعليقاً كاد يدلي به الأمير رفع يده يطمئنه في تواضع

نبيل «إن لم تجد ما تبحث عنه فلا ينفي ذلك وجوده. أنصح أن نبدأ بحثنا سريعاً. سنبدأ من تطوان لا القصر الكبير كما كنت أعتقد. أرسل من تثق به ليبدأ بحثه من هناك»..!

نظر الأمير إلى رماح ففهم الأخير الرسالة. نعم.. سيكون هو ذاك الرسول.

- «كيف العثور على الرجل؟ وما هي صفاته»؟ سأل رماح في حنق كتمه في صدره. فقد كان لا يزال مشكّكاً، وإن بات منذ اللحظة جزءاً من القصّة.

اعتدل ابن برجان في جلسته ما أسعفه ظهره القديم، ثمّ قال:

- «هذا أصعب ما في الموضوع.. كيفية العثور على الرجل. فهو لا يملك صفات محدّدة. إنّه يشبه غيره من الرجال، ولا استثناء»!

- «لكنّك رأيته بنفسك.. أليس كذلك»؟ سأله الأمير.

أحنى ابن برجان رأسه.

- «نعم.. رأيته مرّة واحدة فقط. كان ذلك منذ أكثر من ستّين عاماً. كنتُ ذات يوم أتلو آيات من القرآن بصوت مرتفع كما أراد والدي الجالس في متجره لبيع الجلود في فاس. وكان رحمه الله من علماء المدينة، وأحد القليلين العالمين بأسرار الأندلس. فمرّ بنا رجل له نظرة تنغرس في الصدر كحربة مقاتل، وعليه ثياب نظيفة. بدا في الخمسين من عمره، أو الستّين على الأكثر. له شعر ليس بالطويل، ولحية بيضاء قصيرة تحيط بذقنه تشبه أسوار الحمراء عندما ينعكس عليها ضوء القمر. تحدّث مع والدي حديثاً هامساً لم أستبن معناه. بعد أن انصرف سألت أبي عن الرجل فأخبرني أنّ

اسمه سلاّم. ولم أرَ الرجل بعدها قط». توقّف ابن برجان يلتقط بعض أنفاسه، ثمّ مضى في سرده «لم أسمع باسمه مرّة أخرى إلاّ بعد عشرة أعوام من تلك الحادثة، عندما أخذني أبي إلى كبار العلماء في فاس أدرس على يدهم تاريخ الأندلس. هناك سمعته ينطق باسم سلاّم في حديثه مع أحد الشيوخ. وفهمت أنّه التقى الرجل قبل أشهر قليلة في القصر الكبير. بعد تلك الحادثة بقليل توفّي أبي». زاغت عينا ابن برجان في الغرفة، ولمعتا بدمع جاهد في إخفائه «أدركتُ أنّ أبي كان يُجِلّ الرجل كثيراً. واليوم لا يعرف بقصّة سلاّم سوى من له علم قديم، ولست أعتقد أنّ من يعرف بأمره قد يبوح به».

- «ولماذا قد يخفون ذلك»؟ سأل الأمير مستغرباً.

- «لأن أحداً لن يصدّق القصّة. وقد يقتلونه»!

- «ولماذا يقتلونه»؟

لم يجب ابن برجان، واكتفى بأن نظر إلى رماح وقد أدرك أنّه من سيتولّى عملية البحث «اعلمْ أنّ أمامك لغزاً محيّراً، إذ لا شيء يُستدَلّ به على الرجل أكثر من مكان ربّما غادره منذ زمن».

- «ألا تذكر شيئاً أكثر دقّة عن شكله»؟

- «أذكر أنّ له بنية قوية. مربوع القامة. له وجه يميل إلى الاستطالة. قسماته خشِنة وفي صوته شجن. له بشرة بيضاء مع لحية رقيقة. هذا كلّ شيء. إنّها مواصفات كثير من الرجال، لكنّ أحداً لا يملك تلك العينين». صمت ابن برجان لحظة ونظر إلى البعيد كأنّما يسترجع نظرات الرجل أمام متجر والده في فاس..

«آه. تلك العينان. إن وجدت من تعتقد أنّه هو، فانظر إلى عينيه. فإن عجزت أن تفعل ذلك، عرفتَ من تلقاء نفسك أنّك أمام من تطلبه».

- «صِف لي عينَيه» قال رماح.

- «لا وصف لهما».

بلع رماح ريقه الذي جفّ لمعرفته أنّ اللهو الذي هو من أجله هنا قد انتهى وحلّ مكانه البحث عن شبح. أمّا الأمير فكان منتشياً كمن يسمع قصيدة تمدحه. ولئن كان رأسه قد امتلأ بقصص الأندلس التي يراها في مسلسلات هشّة، فإنّه اليوم بطل مسلسل حقيقي فيه من الغموض ما يناسب الدم الملكي.

- «ماذا لو ادّعى أحد أنّه هو سلاّم الذي نبحث عنه»؟ سأل رماح.

- «لن يحدث هذا. ليس من السهل أن يدّعي أحدهم أنّه هو سلاّم. والذين عرفوه قِلّة، وإن وقعت على من يعرفه، فليس من صديق له. فسلاّم، منذ أن انتهى من الحمراء أدركته لعنة القصر. وقد قرأت في كتب قديمة أنّه كان يُرى أسفل الحمراء ينتحب ويقول «والله لا تستحقّون» يردّدها على كلّ من يراه. ولا أحد يعرف حقيقةً لماذا، ولا ما كان يقصده»!

لم يكن الأمير في حاجة إلى من يُلهب حماسته بأكثر ممّا فعل ابن برجان في تلك الليلة. فقد داخله زهو بلغ غايته وهو يفكّر أنّ قراره بناء الحمراء ليكون سكناً له ما هو إلاّ إلهام لا يتأتّى لأحد سواه!

وفيما بدا رماح مهموماً برحلته، والأمير منتشياً بإلهامه، تابع ابن برجان حديثه:

- «لعلّ هذا ما يجعل من العثور على سلاّم أشبه بالمستحيل. فقد تعمّد الذين عرفوه أن يطمسوا تاريخه. بل نزع بعضهم اسمه من كتب تاريخ عظيمة. أذكر أنّ رجلاً سأل أبي ذات يوم عن سلاّم فأنكر وجوده. لكنّني على ثقة أنّه لا يزال هناك، في مكان ما»، وتهدّج صوت الشيخ.

ثمّ قال متوجّهاً إلى رماح: «ستبدأ رحلتك من تطوان. اذهب إلى المدينة القديمة، وادخلها من ناحية باب يقال له «باب نوادر». ثمّ اسأل عن اللواوي السبع (وتعني طريقاً متعرّجاً على شكل سبعة أكواع)، وعندما تصل إلى هناك اقصد دار الهلالي، واسأل عن رجل يقال له الطاهر الغرناطي. ستجد رجلاً طاعناً في السنّ. له شعر أبيض ولحية كثّة. هكذا رأيته قبل أربع سنوات. أبلغه السلام، وأخبره أنّك من طرف ابن برجان الفاسي، وأنّك تبحث عن سلاّم»!

- «وهل تثق بأنّه سيدلّنا إليه»؟ سأل الأمير.

- «إن كان من أحد يعرف أين يكون سلاّم فهو الغرناطي».

- «ومن يكون الرجل..»؟

- «إنّه من أسلم أبي الروح على يديه، ومعه كلّ أسراره».

- «أما زلت على تواصل معه»؟

- «انقطعت عنّي أخباره منذ تقسّمت معيشتي بين فاس وغرناطة».

- «وما أدراك أنّه لا يزال على قيد الحياة»؟

- «لا يموت عِلم مع الغرناطي وإن مات هو». ثمّ التفت إلى رماح وقال «امضِ، فإنّما الأعمال بالنيّات».

أشعل الأمير سيجارته السادسة في تلك الجلسة، ونظر إلى رماح وقال: «في الصباح الباكر تنطلق».

قبل أن يعود الثلاثة إلى المجلس حيث باقي الرجال، استوقف ابن برجان رماح عند البهو. ضغط على ساعده وقال له محذّراً «عندما تجد سلاّم.. لا تصافحه»!

* * *

قبل أن ترتفع الشمس بمقدار رمح عن الأرض، كانت الرانج روفر البيضاء تبعد عن مدينة طريفة الساحلية على الشاطئ الإسباني، في الطريق إلى تطوان المغربية، قرابة ٢٠ ميلاً فقط. كان رماح يغالب نُعاسه، فيما بدرو يسوق بصمته المعتاد.

اعتدل رماح في مقعده مستعيداً صورة رحلته إلى غرناطة يوم أحضر لأميره ما أراد من كتب مصوّرة عن الحمراء. وكسر صمت الرحلة مع بدرو حديث يعشقه الأخير عن السيّارات وأنواعها. كان السائق الإسباني يتحدث عنها وعن أنواعها بهوس حتّى ليمكن الجزم أنّ ما يجري في عروق الرجل ليست دماء بشرية بل زيت محرّكات!

بعد ساعة فقط من خروجها من ماربيا، كانت الرانج روفر قد استقرّت في جوف عبّارة تقلّها، مع تسع سيّارات أخرى، إلى طنجة على الشاطئ المغربي.

ذاك الصباح، دفعت نسمات خفيفة من هواء عليل بالركّاب إلى شرفة خلفية في العبّارة، حيث شمس الصباح الدافئة تشبه شفتي عشيقة.

- «إنّه جنون.. جنون ما تقوم به» قال رماح يخاطب نفسه،

وهو ينظر إلى الشاطئ المغربي، وفي يده زجاجة بيرة يشرب منها. كانت خصلات شعر قليلة، صُبغت بالأسود عشرات المرّات، تتطاير من مقدّمة رأسه كسجّادة مهترئة الأطراف.

نظر إلى الزجاجة في يده وقد فرغت، فدفعها إلى السائق «أحضر لي أخرى». وما كان السائق ليرفض، فهو يعرف مدى وعورة تضاريس لسان رماح.

بعد نصف ساعة من الإبحار الهادئ، وصلت العبارة ميناء طنجة. وفي أقلّ من عشر دقائق كان الرجلان يغادران بوّابة الميناء.

لم تكن الطريق إلى تطوان تزيد بأكثر من ٦٠ كيلومتراً إلى الجنوب الشرقي من طنجة. إلاّ أنّ بعض أشغال الطريق ومنحنياته جعلت المسافة أطول من ذلك.

«إنّها الثانية عشرة الآن». قال رماح، آمل أن ندرك تطوان بعد ساعة.

- «سنصل إلى تطوان في الحادية عشرة يا رماح. فالساعة الآن هي العاشرة. التوقيت في إسبانيا يسبق المغرب بساعتين». قال بدرو.

تعجّب رماح من الأمر. فتلك المسافة التي لا تزيد عن ١٥ كيلومتراً بين الشاطئ المغربي والشاطئ الإسباني تغيّر الزمن بأكثر من ساعتين. أدرك رماح أنّ تلك المسافة بين الشاطئين وإن كانت قصيرة، فإنّها الرمز للفارق الزمني الكبير بين حضارتين، وهو فارق أبعد بكثير من المسافة التي يمكن للعين أن تراها بين أمّتين يفصل بينهما بحر بعرض ١٥ كيلومتراً فقط..

في الحادية عشرة والنصف بتوقيت المغرب، بدأت تطوان الملتصقة على ظهر جبلها الكبير تظهر للرانج روفر. مدينة صغيرة، استوطن الجزء القديم منها أندلسيون هربوا من قمع الإسبان لهم منذ خمسة قرون. وهذا ما يبرّر التشابه بين طرقات غرناطة وأزقّة المدينة القديمة لتطوان.

أمام «باب نوادر»، حيث ذكر ابن برجان، توقفت السيارة وترجّل رماح، فيما بقي السائق ينتظر في ظلّ بناية تقابل السور القديم.

كان الطقس يميل إلى شيء من السخونة. وزاد منها طريق يصعد إلى الأعلى حيث دلّ صاحب حانوت رماح على موقع «اللواوي السبع» وسط المدينة.

بدأ العرق يتصبّب من الكهل، ونزع عنه جاكيتاً رصاصياً كان يرتديه فوق قميص أزرق كلون السماء. كان هو اللون ذاته الذي تسبح فيه المدينة.

تعجّب رماح من طريقة بناء المدينة القديمة، حيث البيوت تتداخل بطريقة حميمة، وتلتحم الحيطان بعضها ببعض. وعلى الرغم من ارتفاع حرارة الظهيرة، كانت أزِقّة المدينة الظليلة مشبعة بهواء رطب لذيذ.

وقف رماح في منتصف الطريق يلهث ويستند بمرفقه إلى حائط يجاوره. كان حائطاً تهدّم نصفه. تعجّب رماح من سماكته التي تصل إلى متر من الحجارة المتراصة بعناية في صفّ وبفوضى عارمة في صفّ آخر.

في نهاية الزُّقاق الذي لا يزال يأخذ طريقاً صاعداً، بدأ رماح

يفقد طريقه مع تشابه الأزقّة، وكثيراً ما انتهى به الأمر إلى ساحة مغلقة. وقد لاحظ أنّ هذه الساحات تنفتح على خمسة أو ستة دور مجتمعة، بحيث لا يقصد السير في هذا الزقاق أو ذاك إلاّ من هو قاصد تلك البيوت تحديداً. بدت له المدينة كقلعة صُمّمت للدفاع عن نفسها أكثر منها مأوى لقاطنيها. كما بهرته طبيعة البناء، والحوانيت، والأبواب الخشبية العتيقة التي ذكّرته رائحتها ببعض رفاق الأمير!

قبل أن تطول متاهة رماح، سأل بائع في متجر عن «اللواوي السبع»، فوجد نفسه يبعد عنها بضعة أمتار أو أقلّ. ثمّ سأل عن دار الهلالي، فوجدها أبعد من حيث هو بالمسافة نفسها تقريباً.

عندما وقف أمام الدار كان إلى يمين الباب المزيّن بإشارات حديدية وألوان كثيرة، قائم زجاجيّ يحيط به إطار لامع، ومن ورائه ورقة عليها كلمات منمّقة. قرأ: «طاجِن دجاج.. كسكس باللحم..» قلب شفتيه ومسح عرقه بمنديلٍ رافق رحلته منذ الصباح، وتساءل في سرّه «أهذه دار أجد فيها سلاّم أم أجد فيها كسكساً ودجاجاً»؟

كان الباب نصف مفتوح، وقبل أن يدخل عبره استقبله طفل قدّر أنّ عمره عشرة أعوام على الأكثر. سأله إن كانت هذه دار الهلالي، فأخبره أنّ اسمها كذلك. وهي تعود إلى تاجر ثري قديم عاش هنا، ثمّ تحوّلت إلى مطعم. «آه.. رائحة زكية»، قال رماح ودلف إلى قلب الدار فوجدها صورة عن بيوت دمشقية وأندلسية، حيث صحن الدار ينفتح على الفضاء، ومنه تتوزّع الإيوانات والغرف. وفي زاوية إلى يمينه درج صغير يصعد إلى الدور العلوي

الذي خُصّص لأهل الدار والمنامة. ومن بين أغصان شجر متسلّق يمتلئ به صحن الدار، رأى أشكال زهور وأوراقاً محفورة عميقاً في جصّ قديم بعمر الدار، تشبه قليلاً أو كثيراً تلك الموجودة في الحمراء. وفي وسط حائط يفصل بين قاعتين قِطعُ فُسَيفساء وزليج ملوّن تعطيك من بريق ألوانها، التي بهتت، وتصميمها النادر، إحساساً بأنّها بُنيت قبل الدار ذاتها.

طلب رماح كأس ماء. وجلس على مقعد خشبي قديم أنّ من تحته. ثمّ طلب شاياً أخضر.

قبل أن يفرغ من شرابه الذي كان السكّر فيه أكثر من الشاي نفسه، ارتفع أذان الظهر. وبعد أقل من دقيقتين رأى الطفل الصغير وقد شمّر عن ساقيه وساعديه وماء الوضوء يتقاطر منه.

- «إذا أردت المسجد فهو إلى اليمين من هنا». قال الطفل ببراءة، ومضى إلى الجامع القريب.

اكتفى رماح بإيماءة من رأسه. وكان هذا كلّ ما يمكن أن يفعله. إذ إنّ الوضوء الأخير في حياة رماح كان هو الأول. حدث ذلك منذ عقود عندما اصطحبه والده معه إلى جامع قريب من الدار لصلاة الفجر. ما كرّرها رماح أبداً.

بعد خمس دقائق عاد الصبي، فطلبه ضيفه الضخم الذي كان يتأمّل في ثلاث ذبابات تتناوب على شرب الشاي معه.

- «هل تعمل وحدك هنا»؟

- «معي أخي ووالدتي. هو في الجامع وهي في المطبخ».

- «وما اسمك»؟

- «عزيز».

- «قُلْ لي يا عزيز، هل تعرف أين هو منزل الطاهر الغرناطي»؟

- «إنّه الباب الثالث إلى اليمن، قرب باب المسجد. باب أخضر، ستجد عليه مقبضاً حديدياً كبيراً». قال الطفل وهو يمثّل بيده الصغيرة حجم المقبض وشكله.

أعطى رماح الطفل خمسين درهماً. . . «والله إنّه أعقل من ابن برجان والأمير». قال في نفسه ومضى باتجاه الدار الثالثة إلى اليمين.

كان الباب قد اختفى نصفه في الأرض، حتّى إنّ الدخول إليه يتطلّب انحناء قوياً. وبدت الدار أشبه بمقام رجل صالح، إذ تتشابه ومقامات كثيرة في المدينة القديمة.

طرق الباب الحديدي وهو يتذكّر يد الطفل ترسم شكله.

أحسّ بوقع الطرْق يصل إلى ماربيا، كمن أراده أن يصل إلى مجلس الأمير، وإلى أذنه مباشرة.

قبل أن يسمع ردّاً، فتح أحدُهم الباب. ظهر له شابٌ في العشرين من عمره. يلبس جلباباً مغربياً داكن اللون. بدا كالعائد لتوّه من صلاته.

سأله رماح إن كانت هذه دار الغرناطي. .

- «نعم إنّها هي، وأنا يحيى ابن الغرناطي».

- «وهل أبوك في الدار»؟

- «توفّي أبي منذ ثلاثة أعوام تقريباً»!

ضرب رماح كفّاً بكفّ. فكيف الطريق إلى سلاّم إن مات الغرناطي؟ لم يكن أمامه إلاّ أن يسأل الشابّ عن سلاّم. خطا الشاب وهو يسمع الاسم إلى خارج الدار، وسأل مستنكراً الاسم:

- «من يكون»؟

أعاد رماح الاسم مرّة أخرى

- «سلاّم، اسمه سلاّم، ألم تسمع به من قبل»؟

- «لم أسمع به من قبل».

- «ولا سمعت أحداً في هذه الدار يذكره، والدك، والدتك»؟

- «لا من أبي ولا من أمّي». وقبل أن يداخل رماح شيء من يأس كنمر وقع في الأسر، أضاف الشابّ «ربّما هناك من يدلّنا إليه». ثمّ أطبق باب الدار وطلب من رماح أن يتبعه.

سار به بين منعطف وآخر حتّى وقفا عند باب جامع صغير يحمل اسم «الوزّاني». في ركن قصيّ من المسجد بان شكل ضريح، بالقرب منه بساط متواضع من صناعة محلّية استلقى عليه رجل عجوز.

نهض الرجل باتجاه زائريه. سأله الشاب:

- «أتعرف أحداً يقال له سلاّم».

نظر الرجل بغشاوة من لا يميّز سائله:

- «لا. . لم أسمع به من قبل. من يكون هذا»؟

بدأ رماح يشرح بعض صفات الرجل كما قدّمها له ابن برجان. اضطرّ في كثير من الأحيان إلى التحدّث بالفصحى كي يترجم الشابّ ما يقوله للرجل العجوز.

لم يسفر الأمر عن شيء. وعلت خيبة أمل وجه رماح. فجأة قال الشابّ:

- «لأبي أصدقاء كُثر. كان أكثرهم مصاحبة له رجل عريض الصدر ممتلئ الجسم، كثّ الشعر وفيه شيء من عَتهٍ، فلعلّه بحكم رفقته الطويلة لأبي يعرف شيئاً عن الرجل الذي تبحث عنه»!

- «عَته..؟ حسن، وما اسم الرجل»؟

- «الساروتي.. هكذا كنت أسمع أبي يناديه».

- «ومتى كان لقاؤك الأخير بهذا الساروتي»؟

- «عندما أتى معزّياً بأبي. أخبرني يومها وهو يشدّ على يدي، وينتحب كطفل، أنّه لن يبقى في تطوان بعد أن مات صديق عمره فيها. أذكر أنّه تحدّث عن الشاون. قال إنّه ربّما يذهب ليعيش هناك ما بقي له من عمر. لا أعلم إن كان الرجل لا يزال حيّاً فقد كان مُحبطاً ومعتلاً».

صعد رماح إلى الرانج روفر، وألقى بجاكيته إلى المقعد الخلفي. كان العرق يتصبّب منه حتّى التصق قميصه الأزرق بجسمه. بقي صامتاً للحظات، فيما السائق ينتظر الوجهة التي يريد رماح أن يقصدها «هل سنعود إلى ماربيا»؟

لم يجبه رماح، وانشغل بهاتفه يطلب الأمير يخبره بما حدث ويسأله الرأي. وضع الهاتف جانباً، وربط حزام مقعده، ثمّ نظر إلى بدرو وقال «إلى الشاون»!

* * *

تناثرت حول سلّة مُهملات ذهبيّة في المكتب الأبنوسي للأمير كومة أوراق انكمشت على بعضها ككُرات مثقوبة.

كان الأمير في مكتبه منذ العاشرة صباحاً، يرسم أشكالاً بلا ملامح على أوراق أمامه وهو مستغرق في اتصالات لا تنتهي. الاتصال الأول كان من دُبَي. تلاه اتصال من لندن. وآخر من جدّة. وثلاثة من الرياض، واحد من زوجته تستعلم عن عودته، وآخر من مدير مكتبه يخبره بأنّه تمّ إيصال المبلغ المطلوب لعائلة الصديق المتوفّى، واتصال أخير من مدير أعماله يسأله بخصوص التلّة التي اشتراها. «أرجئ الأمر حتّى أعود» قال وأنهى مكالمات الصباح.

مضى باتجاه ردهة الدار المزدانة أرضها بمربّعات الرخام الأسود والأبيض كالقصور الباريسية العتيقة. في وسط الردهة طاولة زجاجية عليها فازة من الكريستال الفاخر عامرة بورود وُضِعت منذ قليل، تناول إحداها ودخل مجلسه الكبير.

قطع كلّ من في المجلس ما كان يدور بينهم من أحاديث وهبّوا واقفين لحظة دخول الأمير. كان حاسر الرأس يلبس ثوباً

سعودياً أبيض مفتوح الرقبة. حيّا ابن برجان ورفاقه وجلس على مقعده أمام التلفزيون، وأخذ يقلّب بالريموت كنترول القنوات الإخبارية تارة، ومقاطع من أفلام عربية وغربية تارة أخرى.

فيما هو مشغول بالشاشة أمامه لاحت منه التفاتة سريعة إلى ابن برجان الجالس إلى يمينه في هدوء. أحسّ لوهلة بأنّ الشيخ على ما فيه من وقار، وما له فيه من حاجة، يبدو غريباً، وغامضاً، ومملاً في صمته. ولو لم يحادثه أحد لبقي عشرة قرون كما هو دون أن ينطق بحرف. والحقيقة أنّ رأي الأمير لم يكن منصفاً، ذلك أنّه قارن، دون قصد منه، بين شيخ في حجم ابن برجان ومكانته، وبعض رفاقه الذين اعتاد السفر معهم. إذ إنّ مهمة هؤلاء تكاد تنحصر في تسلية الأمير بأحاديث يفتقد معظمها إلى الحقيقة.

وبقدر الملل الذي رآه الأمير في الشيخ، رأى هذا الأخير الوحدة التي يعيشها الأمير، ولو أحاط به عشرات المرافقين حتّى الاختناق.

لاحظ ابن برجان الثراء الذي يحيط بالشاب، وسأل في سرّه: «الحياة انتظار دائم لشيء جميل..؟ فما الذي ينتظره الأمير»؟

من هذا السؤال تحديداً يكتسب سلاّم والحمراء بُعداً أعمق في عشق الأمير لما لا يقدر عليه سواه. ومن هنا أيضاً يأتي أهمّ دوافعه للمضيّ في ما عزم عليه.

وضع الأمير الريموت كنترول في حِجره وهو يستقبل مكالمة هاتفية جديدة وينظر إلى التلفزيون. بعد أن فرغ وضع الجهاز على جرائد تراكمت في غير انتظام وانفصلت صفحاتها. التقط إحداها

وأخذ يقرأ حيناً ويشاهد التلفزيون حيناً آخر، دون أن ينسى بضع كلمات ترحيبية بالشيخ المغربي.

عندما نظر إلى ساعته، كانت قد مضت على رماح ست ساعات منذ ترك ماربيا. نظر إلى ابن برجان مبتسماً وسأل:

- «ما ترى فعل رماح»؟

لم يلبث طويلاً حتّى أتاه اتصال منه. أخبره أنّه في الطريق إلى مدينة يقال لها الشاون.

- «وماذا تفعل هناك»؟

أخبره رماح بما حدث معه. وعفّر حديثه بالكثير من التعب والتراب.

- «اذهب إلى آخر الدنيا، لكن لا تعد إلاّ به».. قال الأمير وأغلق الهاتف. ثمّ التفت إلى ابن برجان «إنّه في الطريق إلى الشاون.. لم يجد الغرناطي في تطوان، فقد توفّي منذ ثلاث سنوات».

روى الأمير ما حدث مع رماح. ثمّ سأل:

- «أين هي الشاون يا ابن برجان»؟

ظهر بريق في عينَي الشيخ وهو يسمع الاسم. ثمّ أجاب وهو يعدّل من طاقية صوفية حمراء علت رأسه:

- «مدينة صغيرة لجأ إليها الأندلسيون يوم تركوا الأندلس. إنّها تشبه غرناطة في طرقاتها، وحتى أسماء شوارعها مقتبسة من شوارع غرناطية قديمة. بعض أهلها لا يزالون يملكون مفاتيح بيوتهم هناك. غريب.. ألم يقل لك ما اسم الرجل الذي سيذهب للقائه»؟

- «قال إنّ اسمه الساروتي»!

- «الساروتي.. الساروتي» ردّد ابن برجان باستغراب وهو يعبث بذقنه.. «من يكون الساروتي»؟ وتساءل في سريرته ما إذا كان رماح يسير في الوجهة الصحيحة. ولوهلة تمنّى لو كان بصحبته.

عاد ابن برجان إلى صمته كتمثال غرناطة!

آه.. تمثال غرناطة..

- «رأيت تمثالاً أيها الشيخ في أحد شوارع غرناطة. إنّه لشخصية عربية يبدو أنّها عاشت هناك. اسمه يهوذا ابن طيبون.. من يكون الرجل»؟ سأل الأمير وعقب «أظنّه يهودياً».

أجاب ابن برجان فيما هو هائم في تفكيره بشأن رحلة رماح:

- «بنو طيبون عائلة يهودية أندلسية. اشتغلت بالأدب، ووضع قواعد للغة العبرية مشتقّة من العربية».

- «الله.. الله» قال أحد الحاضرين وهو يمطّ في الكلمة كمشجّع كرويّ، وأضاف في استغراب ساذج: «اللغة العبرية أصلها عربي»؟!

- «قلت إنّ عائلة ابن طيبون عرفت اهتماماً بوضع قواعد للغة العبرية مشتقّ بعضها من قواعد العربية، ولم أقلْ إنّ أصل العبرية عربي».

- «وماذا يفعل اليهود في الأندلس»؟ سأل آخر.

- «كانوا مع العرب منذ دخلوا إسبانيا. وغادر أكثرهم عندما غادروا».

نظر إلى الأرض قليلاً ثمّ رفع عينيه وأضاف «الحمراء نفسه كان لهم شيء من تاريخه..»!

- «ماذا تقول..»؟ سأل الأمير واتسعت حدقتا عينيه.

- «ذكرت بعض الكتب أنّ أول من سكن التل يهودي يدعى ابن النغريلة».

- «يهودي» كرّر الأمير في استغراب لا تكلّف فيه.. «هل تقصد أنّ أول من بنى الحمراء يهودي»؟

- «لا.. بل أوّل من سكن التلّة. الحمراء أتى بعد ذلك، وأتى سلاّم».

- «أخبرني يا ابن برجان» قال الأمير «كيف ينصب الإسبان تمثالاً عربياً في أهمّ شوارع غرناطة وهم يكرهون العرب»؟

- «لا يوجد مَن ينظر بعين الرضى إلى محتلّ له»!

- «نحن فاتحون لا محتلّين».

لزم ابن برجان الصمت.

لكنّ الأمير الذي تربّع على مقعده استثاره حديث الرجل الذي رآه منذ لحظات مملاً:

- «أردت أن أسأل الشيخ عن صخرة طارق بن زياد التي وقف عليها يوم خطبته الشهيرة وأحرق السفن، هل صحيح أنّ آثاره على الصخرة لا تزال موجودة»؟

مال ابن برجان إلى الوراء، وقال:

- «لم تكن هناك من خطبة، وإحراق السفن قصّة وهميّة».

وبعد لحظة صمت كمن يسترجع شيئاً من الذاكرة أضاف: «تتداخل

في تاريخنا الأسطورة بالحقيقة. لم يكن طارق عربياً ليلقي خطبة بالفصحى، وإنّما هو بربريّ. كما أنّ السفن التي انتقل بها إلى الأندلس لم تكن سفنه، بل استعارها من حاكم القوط». .

- «بربري. . طارق بربري»؟! علا صوت في استهجان أتى من المقعد الرابع إلى يسار الأمير.

جاهد ابن برجان لإبقاء ظهره منتصباً، والتفت إلى حيث الرجل قائلاً بحزم:

- «نعم، بربري. . البربر دخلوا الأندلس قبل العرب. وهم من نصروا الإسلام في أفريقيا والأندلس، إن لم يكن أكثر من العرب فليس أقلّ منهم»؟

في شبه تردّد سأل الصوت ذاته:

- «هل أنت بربري أم عربي أيّها الشيخ»؟

لاح انزعاج على وجه ابن برجان، وردّ في شبه غضب:

- «أنا عربي، لكنّني لا أنكِر دور البربر العظيم. وأعلم أنّ لولاهم لما كانت هناك أندلس، ولما كان هناك إسلام في المغرب كلّه».

ساد صمت إلاّ من هسهسات خفيفة تصدر عن الشاشة الكبيرة التي تتوسّط المجلس، قطعه الأمير بسؤال طرحه بلين لا يستفزّ ضيفه:

- «هل سلاّم بربري أم عربي يا ابن برجان»؟

- «هو بربري. . من الريف»!

تواصل حديث الأندلس بين الأمير وابن برجان لنصف ساعة

أخرى. وهو في مجمله ما كان يهمّ رفاق الأمير، فانصرف كلّ منهم يحادث جاره، أو ينظر إلى التلفزيون، أو يتثاءب على مقعده.

عندما وصل ابن برجان في حديثه إلى نقطة قال فيها «لم يُطرد العرب من الأندلس بل. . .» قاطعه أحد الحضور بقوله وهو يشير إلى شاشة التلفزيون حيث كان الأمير يقلّب القنوات على غير هدى: «هذه هي، إنّها الفائزة في مسابقة أجمل راقصة. . عُد محطتين إلى الوراء يا طويل العمر. . نعم. . محطة أخرى. . لا. . لا التي سبقت. . نعم. . هذه هي»!

همّ ابن برجان بالانصراف وقد أدرك مدى اهتمام الحاضرين بما يقول، ولاحظ الأمير ذلك فاستبقاه يحادثه عن الحمراء والقصر.

ما كاد ابن برجان يبدأ فصلاً جديداً من حديثه عن تاريخ الأندلس، حتّى انتقل الأمير إلى الحديث عن تاريخه الشخصي هو. وتاريخ بلاده، وأمجاد عائلته. كان الأمير يجيد رواية الملاحم إجادته الاستماع إليها. وما لبثوا أن أصغوا كلّياً إلى ما يحكيه أميرهم عن ملاحمه، وبين حين وآخر تصدر عنهم همهمات إكبار وإعجاب ، دون أن يجرؤ أحدهم على أن يهمس في أذن جاره بأنه يسمع مثله تماماً، القصّة ذاتها للمرّة العاشرة!

تواصل حديث الأمير حتّى دخل عليه ضيوف كان قد دعاهم إلى مأدبة الغداء فأحسن استقبالهم. ثمّ أمسك بيد ابن برجان إلى حيث نُصبت موائد الغداء في الحديقة الخلفية. كانت نسمات جميلة تهزّ المفارش البيضاء لثلاث طاولات مستديرة كبيرة،

تراصّت عليها كؤوس من الكريستال، مع باقات ورد صغيرة. ووسط زقزقة عصافير تدلّت كأغصان موسيقية على المائدة الرئيسية، جلس الأمير يحيط به ضيوفه. وفيما هو يضع منديل طعامه كربطة عنق من ياقة ثوبه، التفت إلى الشيخ قائلاً: «لو تعرف كم سأكون سعيداً لو قدّر لي الله أن أبني الحمراء يا ابن برجان»، وبدأ يرتشف حساءه. . ثمّ قال: «ستكون لك مكافأة عظيمة»!

انتظر ابن برجان لحظات قبل أن يقول بصوت هادئ: «ليست السعادة في حصولنا على ما نريد أيّها الأمير، بل في تخيّل حصولنا عليه»!

تبادل الجميع أحاديث متفرّقة، ولم تكن الحمراء بأقلّ مكانة من المائدة الرئيسية. كان ضيوف الأمير من الأصدقاء العرب والإسبان الذين اعتاد التواصل معهم كلّما زار ماربيا. وبقي ابن برجان، كعادته، مستمعاً أكثر منه متحدثاً.

«يا له من رجل غريب. .»، قال الأمير في سرّه وهو يختلس نظرة إلى الشيخ المغربي. ظنّ لحظة أنّه يرى ظلال الطفل ذاتها خلف الشيخ. أغمض عينيه بقوة ثمّ فتحهما، فما رأى سوى أسنان تمضغ طعامها على المائدة. وعوض الرعشة التي اعترته للحظة، سرت فيه نشوة المنتصر وهو يطمئن نفسه أنّه في الطريق الصحيح. فما يفصله عن الحمراء هاتف من رماح.

عندما دقّت الساعة الرابعة، كان الجميع قد فرغوا من تناول الشاي تحت كرمة العنب قرب نافورة الفتاة حاملة الإكليل.

بعد أن انصرف الضيوف، نهض الأمير إلى حُجرته في الطابق الثاني ينشد قيلولة ساعة. عرض على ابن برجان أن يرافقه أحدهم إن أراد التجوّل في المدينة، فردّ قائلاً إنّه سيقرأ قليلاً، ثمّ يمضي على قدميه باتجاه المرفأ القريب. أوصى الأمير من يعتني بالشيخ، وافترقا على أن يلتقيا في السابعة مساء.

في الموعد المحدّد، وتحت الكرمة ذاتها، جلس الأمير يراقب طائر وروار يغازل أُنثاه. دخل عليه ابن برجان العائد لتوّه من جولة سار فيها أكثر من ساعة على امتداد الميناء.

بدت على الشيخ ملامح حزن بلون الغسق. وعندما سأله الأمير ما به، أجاب أنّه بخير، والتقط تفّاحة قدمها له مضيفه.

رنّ هاتف الأمير في اللحظة التي وضع فيها ابن برجان التفاحة جانباً. كان رماح هو المتصل. أنهى الأمير المحادثة وعلى وجهه علامات ذهول كبيرة.

سأله ابن برجان عمّا فعل رماح. . «هل وجد الرجل»؟

هزّ الأمير رأسه نافياً. . وقال كمن يهذي «إنّه يبحث. . . عن رائحة خبز»!



رائحة خبز!

حالت أشغالٌ عامّة على الطريق، وعَجلةٌ ثُقبت بمسمار معقوف، دون وصول رماح وبيدرو عند الظهيرة إلى الشاون. ففي هذا الوقت من اليوم، يعمّ السكون المدينة الصغيرة وساحاتها وأزقّتها، حتّى إنّ البحث عن أسد أفريقي في القُطب الجنوبي يبدو أسهل من البحث عن عنوان أو إنسان في وقت كهذا.

إلاّ أنّ كل شيء لا يلبث أن يتغيّر جذرياً مع حلول المساء. فتكتسب المدينة عبيراً يُذكّر بغرناطة، وحيّ البايسين حتّى لتكاد تكون المدينتان توأمين من لحم ودم!

توقفت الرانج روفر قبل الخامسة مساء أمام بوّابة في الشاون يُقال لها «باب العين»، وهي المدخل الرئيسي للمدينة القديمة. يقود الباب من هنا إلى ساحة تُسمّى «وطاء الحمام»، وإن لم تُرَ حمامة واحدة هناك!

إلى اليمين من ساحة المدينة قصبة قديمة، عمرها خمس مئة عام، بُنيت من طين وحجارة. يقول البعض إنّ الأندلسيين الذين سكنوا المدينة شيّدوا القصبة لتذكّرهم بالحمراء في غرناطة. في داخل القصبة متحف صغير، يعرض ملابس تراثية قديمة وإن كانت

لا تزال، حتّى اللحظة، لباسَ الريف المجاور. في الجانب المقابل منها، خارج القصبة مقاه ومطاعم اصطفّت مقاعدها جميعاً باتجاه هذا البناء القديم.

تتفرع من هنا أزِقّة ضيّقة في اتجاه تصاعدي إلى أعلى المدينة، كشرايين تغذّي جسدها. وعلى مرتفع في الأعلى يرى الزائر مسجداً يقال له «أبو عصافر». قال أحدهم لرماح إنّ صلاة واحدة لم تؤدّ فيه، وإن شئت، أمكن القول بعد الاستغفار إنّه قد أصبح حمّاماً عاماً.

يمثّل الوصول إلى هذا المسجد تحدّياً من نوع خاصّ، فالطريق إليه غاية في الانحدار والوعورة.

من الناحية المقابلة، ينتصب على تلّة فوق المدينة فندق من أربع نجوم اسمه «أطلس الشاون». ومع حاجة المدينة إلى فنادق دائمة لاستقبال الدفق الكبير من السائحين والزائرين فإنّ بناء فندق على طراز حديث في فضاء مدينة عريقة كهذه يبدو إهانة للتاريخ.

ترجّل من السيّارة رماح وسائقه الذي تلطّخ قميصه بسواد الإطار المثقوب أثناء استبداله. سار الرجلان نحو المدينة. وقبل أن يصعدا باتجاه الأزقّة التي تُغري الزائرين باقتحامها كأنثى محرّمة، قصدا مقهى يواجه القصبة. طلبا شاياً أخضر، وطاجني كفتة قبل أن يغتسلا من تعب الرحلة. بعد الوجبة التي تشتهر بها المدينة، اكتشفا أنّهما في حاجة إلى أكثر من ستة طواجن، وسلطات متنوّعة تتناسب مع حجم رماح الضخم والإسباني بدرو الذي تكاد عضلات ساعديه وصدره تمزّق قميصه المتّسخ.

كان المقهى يغصّ بسائحين أكثرهم غربيي الملامح. بل كانت هناك عائلات بأكملها، أخذت كلُّ واحدة منها موقعاً منفصلاً عن الآخر في هذا المقهى أو ذاك.

«لا بدّ أنّ هناك شيئاً يميّز المدينة» حدّث رماح نفسه وهو يقدّر أنّ عدد السيّاح في هذه البقعة الصغيرة ربّما فاق ما رآه في كلّ طرقات تطوان.

كانت فترة الاستراحة فترة عمل في الوقت ذاته. إذ لم يوفّر رماح أحداً من السؤال عن الساروتي. لكنّه التزم بنصيحة أسداها له ابن الطاهر الغرناطي، أن لا يسأل عن الرجل سوى كبار السنّ من أهل المدينة القديمة، إذ إنّ من هو في عمر أقلّ لن يعرف الرجل، وسؤال أحد من خارج المدينة القديمة لن يقود إليه.

لم يكد رماح يسأل حتّى استطاع أن يجد أربعة رجال على الأقلّ يدلّونه على رجل يحمل الصفات ذاتها. وإن كان بعضهم قد أبدى استنكاراً للاسم، إلاّ أنّ جميعهم استغربوا أن يسأل رجل بهندام رماح يقوده سائق إسباني عن رجل مثل الساروتي!

- «أين أجده؟» سألهم رماح.

أخبروه أنّه رجل لا يُشاهَد كثيراً. أحياناً تمرّ أسابيع دون أن يظهر، حتّى يعتقد البعض أنّه مات. «وأحياناً يذهب إلى القرى المجاورة ويعود بعد يوم أو أسبوع أو حتّى شهر كامل» قال أحدهم. وعلّق آخر: «بل يسير إلى أبعد من ذلك.. يذهب حتّى طنجة» وأخذ يشير إلى طنجة في البعيد كمن هي بالقرب من كاليفورنيا! إلاّ أنّ أكبرهم سنّاً، وأكثرهم اتّزاناً كما يبدو، وقد كان

يجلس على بُعد ثلاث طاولات قال إنّ الساروتي لا يحبّ الاختلاط بأحد، وهو رجل طيّب ودرويش على الرغم من وقاحته أحياناً.

- «كل هذا جميل» قال رماح «لكن أين أجده»؟ وشرع في حديث يُدخل الطمأنينة إلى قلوب الرجال «أريد بالساروتي خيراً.. أرغبِ في سؤاله فقط». ثمّ فكّر أن يسأل الشيخ الذي يجلس قبالته عن سلاّم. فأجابه بأنّه لم يسمع بالاسم من قبل. وعندما سأل آخرين أجابوه بالطريقة ذاتها. قال أحدهم إنّه يعرف من يدعى سلاّم، وهو ابن صديق له عمره خمس سنوات!

نهض الرجل الأكبر سنّاً يهمّ بالانصراف، فأمسكه رماح بلطف من رُسْغِه الأيمن، فقد بدا له، لسبب ما، أنّه دليله إلى الساروتي. نظر الرجل إلى رماح وقال: «هو لا يظهر في كلّ وقت. أكثر ما تراه في الفجر، عندما تفوح رائحة الخبز الطازج من بيوت المدينة القديمة». وأشار بيده إلى زُقاق يصعد إلى الأعلى قائلاً: «هناك». وانصرف بلا كلمة أخرى!

بقي رماح واقفاً يتأمّل الزقاق الصاعد حيث أشار الرجل. وبعد أن دفع لصاحب المقهى ماله قال الأخير: «افعل ما قاله الشيخ..». اغتنمها رماح فرصة ليسأله:

- «كيف هو شكل الساروتي هذا»؟

- «رجل عادي. تعرفه من صليل حلقات ومفاتيح تتدلّى منه. له مظهر درويش.. مظهر درويش.. تعرف ماذا أقصد؟ لكنّه درويش مسالم»!

- «وهل له بيت أو سكن»؟

- «لا.. ولا ينزل ضيفاً على أحد. ينام في زوايا المدينة. أحياناً يصعد إلى الجبل في الأعلى ويبقى أياماً ثمّ يعود». ومال الرجل هامساً في أذن رماح «يقولون إنّه مخاوي الجنّ، ويتحدّث إليهم». سرت قشعريرة في جسد رماح، ليس من حديث الجنّ، فهم يخافون منه، بل من أنفاس الرجل التي صفرت في أذنه.

- «هل يمكن أن يكون هناك الآن»؟ سأله رماح وهو ينظر إلى الأعلى، حيث المسجد، متمنّياً أن يكون الجواب بلا، فمن سيصعد إلى هناك؟

- «إنّه في المدينة.. رأيته قبل أيام بعد صلاة الفجر».

- «أين»؟ سأل رماح بلهفة..

- «في المكان الذي ذكره الشيخ»، وأدار ظهره وانصرف إلى زبون جلس للتوّ.

توجّه رماح بصحبة السائق نحو الزقاق الضيّق الصاعد إلى حيث أشار الرجل. وما كادا يصلان منتصفه حتّى أدركه إعياء الصعود. استند إلى السائق للحظة ووقف يتأمّل أسفل الطريق، ثمّ الجانبين. على لوحة زرقاء التصقت في استحياء بحائط حجري قرأ: «ريف الأندلس». كان ذلك اسم الزقاق، أو الحيّ، أو ما يتفرّع منهما، إذ لم تُشر اللوحة إلى شيء آخر.

كانت طرقات المدينة قد طُليت من الأرض إلى الحيطان باللون الأزرق، متشبّهة في ذلك بتطوان، أو أنّ الأخيرة من تتشبّه بها. إلاّ أنّ الشاون بدت أكثر نظافة وإثارة للخيال. فأزقّتها

المصبوغة بهذا الشكل لا مثيل لها في العالم. وعرضُ بعضها الذي لا يتجاوز المتر يهبها سحراً مميّزاً. وهي مع ذلك تصعد وتنحدر في سلاسة ماكرة، تذكّر بلعبة الأفعى والسلّم. وعلى الرغم من الأبواب الصغيرة للدور فإنّها واسعة وعميقة في الداخل، تشبه تماماً رحلة الأسرار التي جاءت برماح إلى هنا بعيداً عن لهو ماربيا ولذّاتها!

من مكانٍ قريب حيث وقف رماح مع سائقه، أطلق الأخير صيحة خافتة: «آه.. ما أجملها». كانت أشعّة الشمس تفرض حضوراً وداعياً على النصف الآخر من المدينة، حتّى ليتخيّلها الناظر كحجر فيروز يؤطّره في غير انتظام ذهب هابط من السماء!

بقي الرجلان يتأمّلان المشهد لحظات قبل أن يواصلا المسير «أوه.. نعم.. نعم. هيّا بنا»! قال رماح وأطلق زفرة من لهاث صعدت من فمه كنافورة حوت قُطبي.

انتهى المطاف بزقاق ينحدر إلى الجهة الأخرى من المدينة حيث يلتصق ظهرها بجبلها العالي «كيسوكا». هناك تكشّف أمامهم مقهى متعدّد الطبقات، يُشرف عليه من الناحية اليسرى المسجد في الأعلى، ونبع ماء في الأسفل. جلس رماح والسائق إلى طاولة ينظران منها إلى النبع وقد تجمّعت حوله نساء يغسلن ويغنّين وحولهنّ أطفال يلعبون. أغرتهما مياه النبع وقد بدت أصفى من كرستالات مائدة الأمير بطلب زجاجتي ماء من الحجم الكبير. شرب رماح نصف زجاجته دفعة واحدة، ثمّ أعطاها إلى السائق يحملها عنه، وغادرا عائدين إلى حيث انطلقا من الطريق نفسه.

من ساحة المدينة اتصل رماح بالأمير يخبره بما حدث معه،

وبقصّة الخبز، وأنّه باقٍ حتّى الغد، ومضى مع سائقه إلى الفندق، ذي النجمات الأربع، في أعلى المدينة.

كان المنظر من بهو الفندق المطلّ على المدينة والجبال المحيطة بها آسراً. طلبا حجرتين تطلاّن على المنظر ذاته. وجلسا في البهو يتحادثان.

لم يكن السائق حتّى تلك اللحظة يعلم لِمَ هو هنا. كما أنّ رماح أحجم، طوال رحلتهما من ماربيا، عن إخباره بقصّة الحمراء والأمير وابن برجان. أولاً، لاعتقاده بأنّ حديثه مع السائق لن يقدّم في الأمر شيئاً ولن يؤخّر. ثانياً، لأنّه لم يشأ أن يرى ضحكة ساخرة في عيني السائق إن أخبره بقصّة لا يفسّرها عقل.

على أنّه ما لبث أن وجد نفسه يحدّث بدرو عن القصّة مختزلاً الكثير منها، وقد أتاح له ذلك أن يعود إلى فِطرته في إطلاق اللعنات، مردّداً ألف مرّة في حقّ ابن برجان «ليته لم يكن»!

بقيا في البهو نحو ساعة ثمّ انتقلا إلى المطعم حيث تناولا عشاء مبكراً، وانصرف كلٌّ إلى حجرته. قبل أن يفترقا اقترح رماح على رفيق رحلته أن يناما باكراً ليستيقظا مع الفجر.. بل قبل الفجر كي يجدّا في طلب الرجل ويعودا إلى ماربيا.

بيجامة وحيدة، وقميص جديد لكلّ منهما هي كلّ ما أخذاه معهما من ماربيا. وبنصف بيجامة فقط، نام رماح على كنبة حجرته، وهو يشاهد التلفزيون.

قبل الفجر، رنّ جرس الهاتف. كان المتّصل عامل استقبال الفندق الذي طلب إليه رماح أن يوقظه في هذا الوقت. كان صوته أفضل من الصوت الأجشّ على أيّة حال.

لم تكن الشمس قد بزغت بعد، فاتصل بالسائق يوقظه. بعد دقائق كان الاثنان في ساحة المدينة القديمة مقابل القصبة. بدا كل شيء هادئاً وساكناً إلاّ من صوت إمام مسجد مجاور في ركعته الأخيرة، وقطط تتصارع على فضلات تناثرت من حاوياتها.

نظر رماح إلى السماء الصافية فرأى النجوم تشعّ في اهتزازات تخيّلها تسخر منه. «ستختفين بعد لحظات» قال وركن إلى صمته ينتظر. خرج الناس من المسجد، وأرسل الفجر إشاراته الأولى.

أبقى رماح نظره باتجاه الزقاق الصاعد في انحناء خفيف، إلى المكان الذي أشار إليه الرجل في المقهى. ومن حيث كان يقف رأى أعمدة دخان تتصاعد من بيوت قرميدية. مضى مسرعاً إلى الأعلى، وتبعه السائق ببطء إلى أن وقف خلفه أسفل انعطافة الزقاق الأولى. كانت رائحة حادّة وحلوة المذاق تنتشر في المكان. إنّها رائحة خبز ينضج.

مضى رماح في صعوده. كانت أصوات أنفاسه اللاهثة وقرقعة حذائه على الأرض الحجرية تتردّد في الحيّ كلّه كما لو كانا وحدهما في المدينة.

فجأة، وتحت ضوء مصباح غرس في حائط حجري، جمد رماح مكانه كصنم قُرَشيّ. كان خيال رجل قادم من الناحية الأخرى يقترب منه.

خيال له صليل معدن!

* * *

استيقظ الأمير في الثالثة فجراً على غير عادته. كان شعاع فجر يونيو (حزيران) قد بدأ يلوح في الأفق كغروب شمس في يناير (كانون الثاني). شيء ما أيقظ الأمير. تخيّل أنّه سمع وقع أقدام رماح الثقيلة تدبّ صاعدة الدرج الرخاميّ القديم باتجاه حُجرته، أو صاعدة باتجاه شيء يُشبه الأزقّة الضيّقة في بايسين غرناطة.

كانت تلك اللحظة هي نفسها التي جمد فيها رماح أعلى الزقاق الضيّق، ينظر إلى الرجل القادم يجلجله صليل معدن. سار خطوتين باتجاهه. لم يكن الضوء كافياً لينظر إلى وجهه. استطاع أن يتبيّن حاجبَين سميكين، يكادان يطبقان على عينَي الرجل. عندما اقترب منه رماح واصل سيره متجاهلاً الجسم الكبير المقترب منه. تبعه رماح إلى الأسفل دون أن ينطق. ومن غير توقّع التفت إلى رماح الذي ردّته المفاجأة إلى الوراء. كان الرجل يطلق لحية كثّة بلا تشذيب. له رائحة تشبه السمن البلدي. ويلبس جلباباً صوفياً لا يتلاءم ودفء الجوّ، يغطّيه من رأسه حتّى كعبَيه. بدا الجلباب بنّياً قاتماً، أو لعلّه أحمر إذ لم يستطع رماح تمييزه في الضوء الخافت.

بقي السائق يرقب الرجل وهو ينظر باتجاه رماح، ويواصل خطوه نحو الأسفل دون أن ينطق بكلمة. تبعه رماح مهرولاً.

- «الساروتي..؟» ناداه رماح بصوت خفيض، وأعاد الكرّة بصوت أعلى «هل أنت الساروتي»؟

وقف الرجل مرّة أخرى ونظر وراءه. أطلق تنهيدة مكتومة وقال:

- «ماذا تريد»؟ وأزاح الغطاء عن رأسه. لمح رماح على الضوء الخفيف مصدر الصليل. لم تكن كلّها حلقات ومفاتيح تتدلّى منه، بل ثمّة ما يشبه الخلاخل تزيّن طرفاً من جلبابه.

بقي الرجل يتأمّل رماح الذي كان هو أيضاً يتأمّل قامة الرجل وثيابه، وخصلات شعره المتهدلة بطريقة عبثية. «أهذا الذي سيدلنا على سلاّم»؟ تساءل رماح وهو يسخر في سرّه من الموقف الذي هو فيه، وأحسّ بحقده على اثنين: ابن برجان، وأميره.

لكنّه ليس صاحب القرار، بل هو رسول، ولو إلى معتوه كالذي أمامه. حاول رماح أن يستوقف الرجل الذي واصل طريقه متجاوزاً بدرو الذي كان يرقب مشهداً يشبه مقطعاً من أفلام هتشكوك. بعد أن تخطّاهما بمقدار قامتين، دار الرجل بكل جسمه ونظر إلى السائق، ثمّ إلى رماح.

تقدّم إليه رماح حتّى واجهه مباشرة، فأحسّ أنّه أمام راعي غنم. وقبل أن يسأله مرّة أخرى، بادره الرجل بصوت رفيع لا يتناسب وحجم صاحبه:

- «ماذا تريد من الساروتي...»؟

- «أهو أنت..»؟ قال رماح وتقدّم خطوة تجاهه.

من بعيد جاءت صيحة منقذة من صاحب المقهى الذي بدأ يعدّ المقاعد لروّاده

- «صباح الخير سي الساروتي»!

- «أنت الساروتي إذاً».

اكتفى الأخير بهزّ رأسه دون أن يتكلّم.

حاول رماح أن يأخذ بيده إلى طاولة في المقهى، لكنّ الرجل أبعد يده بعنف مضحك.

جلس رماح فيما بقي الرجل واقفاً ينظر إليه مستنكراً. ثمّ التقط كرسيّاً غير الذي قدّمه إليه رماح وجلس في اتجاه القصبة.

- «هل تريد أن تشرب شيئاً»؟ سأله رماح.

لم يجب.

انضمّ السائق إلى المشهد، وجلس خلف الرجلين. عدّل الساروتي من جلسته ليواجه رماح وقال:

- «من تكون أنت؟»

عرّفه باسمه، وبسائقه. ثمّ أشار إلى صاحب المقهى أن يُحضر شاياً أخضر لثلاثتهم.

داخلَ رماح إحساسٌ غريب تجاه الجالس قُربه، فلم يعرف أيعطف عليه كمعتوه، أم يخاف عدوانيته. كان متأكّداً من أمر واحد هو أنّ رجلاً كهذا لا يمكن أن يكون دليلاً موثوقاً ولو في البحث عن دجاجة!

• ثم، وبدون سابق تفكير، أخرج ورقتين من فئة عشرة يورو

دفعهما للرجل. لم يمدّ الساروتي يده، فوضع رماح الورقتين مطويّتين أمامه على طرف الطاولة ذات الغطاء البلاستيكي.

بعينين شبه مغمضتين، نقّل الساروتي نظره خُلسة بين رماح والمال الذي أمامه وسأل:

- «ماذا تريد من الساروتي»؟

تصنّع رماح ابتسامة وقال:

- «هل تعرف رجلاً يقال له الغرناطي.. الطاهر الغرناطي؟ إنّه يسكن في تطوان» وأشار بيده إلى ما وراء الجبل «هل تعرفه؟ لقد دلّني ابنه عليك».

رفع الرجل رأسه عالياً بطريقة غريبة وزمّ شفتيه.

واصل رماح في إصرار:

- «علمت أنّك كنت صديقاً للغرناطي. وأنا أبحث عن صديق له اسمه سلاّم. هل تعرف هذا الاسم.. سلاّم»؟

قطّب الرجل جبينه وقال بمزيج من القرف المتبادل مع رماح.

- «أيّ سلاّم..»؟

- «صديق الغرناطي».

ندّت عنه تنهيدة وقال:

- «رحم الله الغرناطي»، ورفع سبّابته «هم السابقون ونحن اللاحقون»!

- «وسلاّم.. سلاّم.. ألا تعرف أحداً بهذا الاسم»؟

- «لا أعرفه..» قال الرجل وهبّ واقفاً.

- «ألم تسمع الغرناطي يذكره يوماً أمامك»؟

مضى الرجل دون أن يجيب باتجاه القصبة. كانت مصابيح الليل الصفراء لا تزال تنير حيطان القصبة وبابها. فعكست منظراً سينمائياً للرجل وهو يغوص في عمق اللون الأصفر.

أحضر صاحب المقهى الشاي وهو ينظر إلى الساروتي يسير مبتعداً «دعوه.. إنّه هكذا.. لا تقسوا عليه. اسألني أنا إن أردت شيئاً» قال صاحب المقهى ونظر إلى ورقتي اليورو المطويتين على الطاولة.

تبع رماح الرجل وتقدّمه يسدّ عليه الطريق في منتصف الساحة. سأله في إلحاح:

- «ألا تذكر شيئاً عن هذا الاسم.. سلاّم.. هه؟ حاول أن تتذكّر.. ألم تسمع الغرناطي يذكره أمامك يوماً»؟

حاول الرجل أن يتذكّر شيئاً وهو ينظر إلى باب القصبة.

- «وماذا يصنع هذا السلاّم»؟

لم يعرف رماح ما يقول. تردّد قليلاً ثمّ أجاب والغيظ يتجمع في وجنتيه.

- «إنّه رجل له علاقة بالحمراء في غرناطة.. قصر الحمراء. هل تعرف قصر الحمراء»؟

هزّ الرجل رأسه ساخراً، ثمّ زمّ شفتيه مرّة أخرى، وتابع سيره.

لم ييأس رماح، فقد ساوره إحساس الآن بأنّ الرجل يعرف شيئاً. خلع معطفه وحمله بقبضة يسراه وتبع الرجل.

- «يا سي الساروتي..» قال بلُكنة مغربية مضحكة «أعتذر لو

أزعجت صباحك، لكن هل تعرف أحداً له علاقة بقصر الحمراء، مهما كان اسمه»؟

سمع رماح ما ظنّ أنّه ضحكة ساخرة صدرت عن الرجل!

في محاولة أخيرة سأله مستخدماً كلّ ملكات لسانه وإشارات يديه حتّى بدا كأصمّ يحدّث أصمّ:

- «ألا تعرف رجلاً بنى الحمراء منذ ثمان مئة عام.. و.. و».

سكت رماح فجأة، فيما توقف الرجل عن السير، ونظر إلى محدّثه. أخذت قسمات وجهه تتحوّل إلى درويش حقيقي. اقترب خطوتين من رماح وقال:

- «تبحث عن الرجل الذي بنى الحمراء..»؟

- «نعم.. نعم.. منذ ثمان مئة عام. اسمه سلاّم، هل تعرفه»!

رفع الساروتي رأسه إلى السماء وقهقه ساخراً:

- «تريد سلاّم..»؟

- «نعم.. نعم هذا ما أريد».

- «الذي بنى الحمراء»..؟

- «نعم.. نعم الذي بنى الحمراء»!

- «منذ ثمان مئة عام»؟

- «نعم.. نعم»!

فجأة كفّ الرجل عن الضحك

- «أمجنون أنت أم عاقل؟ والله لو بحثت عمّن بنى هذا الجامع» وأشار بيده إلى المسجد القريب «لما وجدته على قيد

الحياة». وقبل أن يختفي بصليله وقهقهته ردّد بصوت عال: «إنّه صباح المجانين»!

بقي رماح واقفاً مكانه، في يأس. ومن حيث هو نظر إلى السائق الذي كان يشرب الشاي في هدوء على كرسيّه في المقهى.

عاد إليه وألقى بكلّ ثقله على المقعد بجواره. نظر إلى الورقتين الماليّتين أمامه. التقطهما وأخذ يحرّكهما كمروحة ورقية، قبل أن يدفنهما في جيبه.

- «بدا لي الرجل معتوهاً» قال بدرو.

- «والله إنّه أعقل واحد فينا. نحن المعتوهون. نبحث عن رجل مات منذ ثمانية قرون.. تصوّر»! وشهق بعمق أحسّ معه السائق أنّ الهواء قد انتهى، «والله مجانين» ردّد مرّتين قبل أن يطلب صاحب المقهى. نقده ماله، وزاد عليه. وليتأكد مرّة أخرى سأله:

- «أهذا هو الساروتي بالفعل»؟

- «ومن لا يعرفه»؟!

تمتم رماح ساخطاً، ووضع يده على خدّه وأخذ يميل بحافة كأس الشاي الأخضر يميناً ويساراً حتّى كاد يسكب ما فيها. كان يفكّر في خطوته القادمة.. وما سيقوله للأمير؟

بالقرب منه بقي السائق ساكتاً، وانشغل بمراقبة كلب له ثلاث قوائم يعبر الساحة.

بدأت شمس الصباح تكسو برج القصبة الكبير. بعد دقائق وفد عدد من السيّاح إلى المقهى. كانت لهم ملامح إسبانية.

جلسوا غير بعيد عن الرجلين. حيّاهم بدرو فيما رماح ينظر إليه مسنداً خدّه إلى راحة يده وقال: «اسألهم ما يحبّون في هذا المنفى.. إنّه مقرف»؟!

مال السائق يحدّث أكبرهم سنّاً لبضع دقائق. التفت بعدها إلى رماح وشرح له ما قال الرجل: «يولد الإنسان من ماء صافٍ، لا تلبث الحياة أن تلوّثه بهمومها فلا يعرف ما يريد وما يكون. هنا يعود للماء صفاؤه فترى ما في داخلك بنقاء عجيب».

- «أهذا ما قاله الرجل»؟
- «نعم».

«خراء»! قالها رماح بعصبيّة ونهض متصنّعاً ابتسامة حيّا بها الرجل الكبير.

سار إلى وسط الساحة وأخذ يدور على شكل حلقات وقد شبك يديه وراء ظهره. لاح للسائق أن رفيقه قد فقد عقله. وقد كاد بالفعل..

توجّه الرجلان إلى الفندق. في المطعم جلس رماح يتأمّل جبال المدينة والشمس تزحف عليها ببطء.

خطر له أن يعود إلى الغرناطي «ولم لا، فلربّما أعطاني اسم الرجل بالخطأ، أو أنّه يعرف رجلاً آخر».

بعد نصف ساعة، كانت السيارة البيضاء تنعطف من طريق ترابي باتجاه تطوان، مثيرة زوبعة غبار مثل أشباح مرحة تودّع المسافرين.

على حرف النافذة المغلقة كان كوع رماح يسند رأسه المائل

إلى اليمين، كتمثال يفكر منذ ألف عام: أين النجاح وأين الفشل في مهمته المجنونة؟

ما أغرب تلك اللحظات التي لا يعرف فيها الإنسان أفشل في مهمته أم نجح. لأنّه غير قادر على أن يرى نفسه من الخارج. أمّا داخله فمياه عكرة، كما قال السائح الإسباني.

أحسّ رماح بأنّه يجلس على نصلٍ قاطع يفصل بين داخله وخارجه.. نصل مؤلم.

«تبلى أعصابنا قبل أن يبلى الجسد، ويفنى عقلنا قبل الرأس الذي يسكنه». قال رماح يحدّث نفسه في لحظة تجلٍّ.

«الإحساس بالنجاح مع الفشل أهمّ من الإحساس بالفشل مع النجاح. إنّها مسألة إحساس إذاً». وعلا صوته كمن انتصر على حيرته «نعم.. إنّها مسألة إحساس».

هل فشل أم نجح إذاً؟

عاد يفكر من جديد، وبدأ من الصفر مرّة أخرى!

كانت بعض حوانيت مدينة تطوان القديمة قد بدأت تفتح أبوابها عندما بلغها الرجلان. هذه المرّة سار بدرو برفقة رماح عبر الأزقّة في اتجاه دار الغرناطي. لم يكن الوصول إليها صعباً كالمرّة الأولى. طلب رماح من السائق أن ينتظره في المطعم المجاور للدار، ومضى هو إلى الباب القريب منه. قرع الحلقة الحديدية المعلّقة. بعد قليل فتح الباب قليلاً وأطلّت امرأة لها سمات عجوز تعدّت خط النهاية منذ زمن.

- «هل يحيى بالدار»؟

كانت المرأة شبه صمّاء، فاضطر إلى رفع صوته «هل هذه دار الغرناطي»؟

- «نعم.. إنّها هي وأنا زوجة الغرناطي».

قارب بين كفّيه يصنع ميكروفونه البشري.

- «هل يحيى هنا»؟

- «لا. ذهب إلى الرباط بعد ظهر أمس». قالت وفتحت الباب أكثر تنظر من يحدّثها. كانت تضع على رأسها غطاء أبيض يصعب تمييز أطرافه فوق شعرها الأشيب.

- «متى يعود»؟

- «لا أعلم. بعد يوم أو أكثر». وأضافت: «ماذا تريد به»؟

فرك وجنته وقال:

- «لا شيء.. لا شيء. شكراً لك». ومضى إلى مطعم الهلالي.

من أمام الباب رآه الطفل الذي قدّم له الشاي البارحة في المكان نفسه. وقبل أن يصل إليه شارد التفكير، وجد رماح نفسه يعود إلى دار الغرناطي ويطرق الباب من جديد.

فتحت المرأة ذاتها..

- «أعتذر يا سيّدتي. أحببت أن أسألك..» ورفع صوته أكثر وجاهد في التحدث بلكنة مغربية «هل كان زوجك يعرف رجلاً اسمه سلاّم»؟

- «سلاّم.. لم أسمع بالاسم من قبل»، أجابته بعد صمت قصير.

- «وهل تعرفين رجلاً اسمه الساروتي. قالوا إنّه كان صديق زوجك»؟

ردّدت المرأة الاسم كمن تسمع به للمرّة الأولى أو تسترجعه من ذاكرة عتيقة.

- «كان لزوجي الكثير من الدراويش»!

فتح رماح عينيه حتّى غدتا أكبر من باب الدار التي أمامه.

- «وهل كان لزوجك دراويش»؟

- «كان يعطف على كثير منهم. يطعمهم، ويجالسهم، ويسكنهم في دار قديمة له في أطراف المدينة. كان رجل خير رحمه الله».

- «وهل من بينهم رجل يقال له سلاّم»؟

- «لا أذكر أسماء دراويش الغرناطي. لكنّهم كُثر كما قلت لك. ربّما كان من بينهم الاسم الذي ذكرت، لا أعلم.. لقد كانوا كثيرين يا بُنيّ».

وقف رماح يستمع إلى المرأة وهي تذكر مآثر زوجها، ثمّ قالت:

- «أعتقد أنّ في القصر الكبير بعض الشيوخ العارفين لزوجي، لو سألتهم فلربّما قادوك إلى مبتغاك».

- «وهل هم دراويش أيضاً»؟

- «كلّ أصدقائه كانوا كذلك تقريباً» وعادت من جديد تتحدّث عن المآثر الخالدة لزوجها.

شكر رماح السيدة وانصرف.

دخل المطعم وأخذ مكانه أمام السائق. بينهما إبريق شاي أخضر وأرغفة مُحلاّة بالعسل.

أخذ رماح يتمتم «دراويش الغرناطي.. دراويش الغرناطي..» وأطلق ضحكة صغيرة.

أمسك بهاتفه واتصل. رنّة، اثنتان، في منتصف الثالثة أجاب الأمير. سحب رماح نفساً عميقاً طار معه زرّ قميصه كطلقة رصاص «يا طويل العمر.. ابن برجان معتوه كبير»!

* * *

طلب الأمير أن يرسلوا إلى قصره في الرياض كلّ ما حصل عليه من صور وكتب لقصر الحمراء، ثمّ مضى إلى مكتبه، وهناك تلقّى اتصال رماح من تطوان.

بدا عليه شيء من وجوم وهو متجه إلى مجلسه. ولعلّ ما اعتراه حيرة قاسية أكثر ممّا هو وجوم أو غضب. في داخله أحاسيس متشابكة كأغصان شجرة استوائية.

أتراه إحساس بالخديعة من قِبل ابن برجان، من رجل له اسم «العفاريت» كما قال رماح؟ أحسّ الأمير أنّه قد تقزّم أمام الآخرين. وأنّه كان أُضحوكة رجل خرِف.

ألقى الأمير التحيّة على الحاضرين دون أن ينظر إلى الشيخ الصامت في مقعده. تحاشى النظر إليه خلال الساعة التي قضاها في المجلس ذاك الصباح يقرأ جرائده ويشاهد التلفزيون، وينصرف إلى غدائه.

لم يخبر الأميرُ ضيفَه بما أخبره رماح. آثر أن ينتظر حتّى قدوم مبعوثه، فيشرح ما وقع معه أمام ابن برجان مباشرة.

أحسّ الشيخ بتوتّر أميره، وتوتّره هو من ثمّ. كأنّ هواء ساخناً يصّعد من مقعده. لكنّه بقي، كعادته، صامتاً.

اكتفى الأمير بطعام قليل، ثمّ نهض إلى رُكنه المعتاد تحت الكرمة حيث انضمّ إليه ابن برجان.

تحدّث الأمير في أمور كثيرة دون أن يأتي على ذكر رماح أو الحمراء. وكمن أحبّ أن يطلق غصّة من حلقه سأل ابن برجان:

- «هل تعرف الفرق بين الكذب والحقيقة»؟ جاءت نبرة السؤال موحشة وأحسّ بها ابن برجان كصفعة على خدّه.

وضع يديه على ركبتيه وأجاب:

- «نحن لا نرى الحقيقة.. بل نحسّ بها أيّها الأمير»!

- «أنا أراك فأنت حقيقة ولو لم أُحسّ بوجودك.. أم أنّكَ وهمٌ»؟

- «إن لم تحسّ بوجودي فأنا وهمٌ.. والوهمُ أصدق من الحقيقة أحياناً»! أتى تشديد ابن برجان على عبارته الأخيرة كفرقعة سوط تحذّر أن يعبث أحد بكبريائه ولو كان الأمير.

لكن، ولأنّه أمير، لم يرضَ بلسعة سوط تفرقع في فضاء مجلسه. فعاد يسأل الشيخ:

- «هل لميّتٍ أن يعود إلى الحياة.. ميّت منذ قرون»؟

استوى ابن برجان في جلسته، حتّى بانت ضلوع صدره الضامر، وردّ في سرعة بديهة:

- «هذا إن كان قد مات أصلاً»!

بدا الانزعاج على مُحيّا ابن برجان. وللحقّ أنّ ذلك أزعج الأمير نفسه. فتصنّع ضحكة يُرضي بها ضيفه، ومضى إلى مخدعه في قيلولة حتّى المساء.

وجم ابن برجان قليلاً، ومضى إلى حجرته.

قبل أن تبرد شمس ذلك اليوم كان رماح قد عاد لكن ليس إلى المنزل. فقد طلب الأمير أن ينتظره على ظهر اليخت.

في الثامنة مساء، أقبل الأمير بصحبة ثلاثة من مرافقيه. صعد إلى متن اليخت حيث يجلس رماح مع بعض الصبايا في ثوب بحر اختفت أطرافه العليا تحت لحم بطنه المتهدّل.

«عصير بريء..» قال وهو يرفع، أمام الأمير، كأساً امتلأت بالفودكا. لم يكن رماح، حتّى تلك اللحظة، يعلم مقدار ما عاش فيه أميره من خيال في اليومين الماضيين. وعلى الرغم من انزعاجه جرّاء فشل رحلته، بسبب انتفاء قصّة سلاّم، وبسبب إحساسه التضامني مع الأمير، كان يرى الأمر أقلّ سوءاً من أميره. فإذا ما كانت القصّة كلّها كذبة كبرى، فمعنى هذا أنّ الأمير يستطيع أن يبني القصر الذي يريد، دون أن يقع فريسة لعنة لا وجود لها. لِمَ الانزعاج إذاً؟ «وعاشت الفودكا». هتف في نفسه.

لم يكن الأمر كذلك بالنسبة إلى الأمير.. فمذاق الخديعة أشدّ مرارة من الفشل.

عجز غُنج الصبايا وظُرف رماح أن يبعدا الغصّة من حلق الأمير. ولا أنسياه كم كان ساذجاً. بخلاف رماح الذي نسي، وهو ينظر إلى الصبايا من حوله، أين كان هذا الصباح!

أطرق الأمير لحظة، ثمّ رفع رأسه إلى الأفق يتأمّل بقايا النهار. «ما رأيك في الأمر»؟ سأل ودفع برأسه إلى الوراء يسنده إلى أصابعه المتشابكة.

كان على رماح، قبل أنْ يشرع في إبداء رأيه، أن يُظهر عظمة المجهود الذي بذله.

لم تستغرق رحلة الذهاب من ماربيا إلى تطوان ثلاث ساعات، بل ستّ ساعات. ولم تكن دار الغرناطي في تطوان سهلة الوصول، بل تطلّبت صعوداً أقلّ جهداً بقليل من تسلّق إيفرست. أمّا الغرناطي، فلربّما كان لقاء الملك الإسباني أسهل من مقابلة ابنه. «ثم ماذا أقول عن رحلة الشاون يا طويل العمر»؟ قال رماح وقطّب حاجبيه بما يليق برحلة السبع ساعات إلى المدينة بسبب أعطال الطريق والإطار الذي انثقب بسبب لعنة الساروتي وابن برجان. بقيت مسألة البحث عن الساروتي نفسه، والذي كان العثور على إبرة غارقة في قعر المحيط أسهل من العثور عليه «يا طويل العمر»! ولم يكن من المستغرب أن تنزل دمعة حسرة على الكذبة التي عاشا فيها، والتي دفع هو، رماح نفسه، ثمنها الأكبر بسبب ما تعرّض له. فقد استغباه المعتوهون، وحقّره العقلاء، ... وانفجر الإطار للمرّة العاشرة بسبب وهم!

لم يكن الأمير ليعنى كثيراً بمتاهات رماح، وإنّما همّه النتيجة: لا وجود لسلاّم. لا يعرفه أحد. ولم يسمع به أحد!

اعتدل في جلسته، وساعداه متقاطعان، ومال تجاه رماح:

- «أترى قد خدعنا العجوز إذاً»؟ ثمّ أضاف وقد أعياه التفكير «لعلّه الخرف. نعم.. إنّه عجوز خرِف. لكنّه ليس مخطئاً بقدرنا»!

- «ستمضي في بناء قصرك أيّها الأمير. أليس كذلك؟ لو كنت مكانك ما تحسّرت على كذبة العجوز. فما عليك الآن لو

كان صادقاً أو كاذباً»؟ وتابع رماح وهو يعبث بغابة صدره ويفكّر بعمق مفتعل «أنت محظوظ.. نعم محظوظ يا طويل العمر. فلو أنّ سلاّم هذا كان حقيقة، فما أدراك لو وجدته وكان أكثر خرفاً من ابن برجان؛ لأضاع وقتك الثمين في قصّة غيبيّة أخرى، أسوأ ممّا فعل ابن برجان. لقد أضعنا أسبوعاً بين أخذ وردّ. كان يمكن لك أن تكون قد التقيت، على الأقل، ثلاث أو أربع شركات تصميم هنا في إسبانيا».

لانت ملامح الأمير وهو يستمع لرماح المنتشي بمنطقه «الرأي عندي أن تبدأ منذ الآن، لا.. لا.. بل منذ الغد، عملية البناء. ستبني القصر الذي تريد، وكما تريد». واختتم في مكر «الأفضل أن تبقى هنا بضعة أيام أخرى. فطالما قد عزمت على بناء الحمراء، فهي هناك، على بُعد ساعتين. يمكننا الرجوع إليها في أيّ وقت. أمّا الرياض.. وفي هذا الوقت، ونترك هذه الجنّة.. فأرجوك لا.. هذا مخالف للمنطق.. مخالف لحقوق الانسان»!

ضحك الأمير، وأشار إلى ما في يد رماح «نعم.. إنّه عصير بريء».

- «أقسم بشرف أمّ صديقتي أنّه كذلك»!
- «ألم أقل إنّك تصبح عاقلاً عندما تثمل.. اشرب يا رماح.. اشرب»؟

* * *

بعكس ما توقّع الأمير، فقد زادت لذّة الليل من كدره في الصباح التالي. استيقظ وهو يشكو صُداعاً حادّاً. أحسّ بجيش يخوض حرباً في رأسه.

طلب حبوب أسبرين ولازم فراشه حتّى الحادية عشرة صباحاً.

نزل إلى الأسفل بعد ساعة كاملة قضى نصفها في حمّام أُعِدّ له، والنصف الآخر مع حلاّقه الذي اعتاد أن يكون ثاني من يراه كلّ صباح بعد مرافقه الشخصي، أو زوجته، حسب المكان الذي هو فيه.

كان عليه أن يتعايش اليوم مع بعض الأخبار السيّئة.

فقد كُسرت ساقُ فرسٍ عزيزة عليه.

وأشهرت شركة أمريكية يملك جُلّ أسهمها إفلاسَها.

ماذا بعد؟

طبّاخ يعمل لديه أصيب بحالة تسمّم ونُقل إلى المستشفى.

وأخيراً..

أحد العاملين في مكتبه في الرياض، أقسم أنّه رأى التل الذي اشتراه الأمير يهتزّ!

ومع أنّ هذا الشخص تحديداً له روايات غريبة متعدّدة، إلا أنّ رؤية التل يهتزّ حظيت بتقدير خاصّ.

فكّر الأمير في حماقة الرجل. لكنّه ابتسم مُكرهاً وهو يتذكّر حماقته هو.

ليهتزّ التل إذاً!

انتهت إلى مسامع الأمير، وهو على رأس الدرج الرخامي، أصوات رفاقه في المجلس الكبير. كانت أشعّة الشمس المائلة قد نثرت ألوان قبّة زجاجية تعلو الدرج على أرضيّة البهو.

استطاعت ثلاث حبّات أسبرين أن تهدّئ من دوي القنابل في رأسه. عند الدرجة الأخيرة تذكّر أُمسية البارحة وحديث رماح وابن برجان، فعاوده شيء من كدر. ووقف يتأمّل التمثال المرمري أسفل الدرج.

أبطأ في الدخول إلى المجلس، وأخيراً فعل.

كان ابن برجان على مقعده يضع نظّارة طبية رقيقة الإطار، ويقرأ في كتاب قديم يكاد ورقه الناشف يتكسّر كقطعة بسكويت. حال استغراقُه في القراءة دون أن يرى ما يدور حوله، فلم يعرف بدخول الأمير إلاّ من أصوات ترحيب الحاضرين وقد هبّوا واقفين لرؤيته. فوقف هو أيضاً، وأطبق الكتاب على سبّابته. وقبل أن يجلس أزاح النظّارة عن عينيه وحيّا الأمير بابتسامة ودّ، وعاد إلى هدوئه.

نظر الأمير إلى رفاق له في المجلس فوجدهم يتأهّبون للانطلاق في جولة بالمدينة. طلب منهم البقاء، فما أراد أن يكون وحده مع ابن برجان.

سأل عن رماح، فأخبروه أنّهم لم يروه منذ الصباح، والأرجح أنّه لا يزال نائماً. «لم ينم إلاّ في السادسة صباحاً»، قال أحدهم.

أرسل الأمير من يأتي به، الرجلَ الأجشّ نفسه.

أخذ الأمير يقلّب القنوات الفضائية أمامه، ثمّ أمسك بجريدة يقرأ فيها.

في هذه اللحظة ما كان يقرأ، بل يسمع صوتاً في داخله يقول «ترفّق بالشيخ»! لم يكن الصوت غريباً.. إنّه ما يشعر به تجاه الرجل!

مع ذلك مضى يطالع جريدته متجاهلاً كلّ من في المجلس وابن برجان من بينهم.

لم يُطقِ الشيخُ صمتَ الأمير الطويل على غير عادته، فسأله:

- «هل عاد رماح»؟

- «عاد البارحة» ردّ عليه في اقتضاب مخفياً وجهه وراء جرائده. ما أراد النظر إليه في هذه اللحظة تحديداً ولا أراد في الوقت ذاته أن يقسو عليه.

عاد الصوت في داخله يقدّم أعذاراً للرجل. فكّر في أنّه ربّما أخطأ في اسم الغرناطي. ربّما كان شخصاً آخر. ربّما خانته الذاكرة. هناك ألف ربّما أخرى خطرت في ذهن الأمير. شيء واحد لم يخطر له، أن يسمع رأي الشيخ أوّلاً، ويعرف ما تقول كتبه القديمة، قبل أن يحكم عليه بالعتهِ أو الكذب.

حديث رماح إليه البارحة بخصوص استئناف ما عزم عليه من بناء الحمراء على تلّة الرياض، وتجاهل قصّة سلاّم، كان يختلط في عقله بالهيئة الوقورة، والمملّة أحياناً، للشيخ الجالس إلى جواره.

أصاب رماح في رأيه. وربّما لأوّل مرّة في حياته. ذلك أنّ الأمير ما كان ينبغي أن يمتعض من ابن برجان، بل أن يكون سعيداً بخلاصه من قصّة اللعنة تلك، ولو كان ابن برجان صادقاً فيها.

لكن عندما عاد الأمير يفكّر في الأمر، وجد نفسه يربط دون إرادة بين أخبار الصباح السيّئة، ولعنة الحمراء!

أحسّ بالقصّة الأولى تتكرّر عندما كان يرى ظلال الطفل الأجعد. ومن هنا منبع حيرته وغضبه أيضاً، بين أن يأخذ بكلام ابن برجان، أو يكذّبه. وللحظة فكّر أن ينسى الحمراء كلّها. لكنّه وجد أنّه إن كان مخيّراً، فسيكون هذا هو الخيار الأصعب والأخير، ولو بدا مستحيلاً!

وضع ابن برجان الكتاب الذي كان يقرأ فيه أمامه، وطوى نظّارته في حاوية جلدية صغيرة وضعها في جيبه، وسأل متوقّعاً جواباً لا تفاؤل فيه:

- «هل وفّق رماح في مهمّته»؟

نظر إليه الأمير هذه المرّة مترفّقاً:

- «سيأتي الآن وتسمع منه يا ابن برجان».

- «خيراً إن شاء الله، وما الذي حدث أيّها الأمير»؟

- «انتظر وسيروي لك ما حدث».

نهض الأمير إلى مكتبه الأبنوسي، وطلب بعض الشاي، وحبّة أسبرين رابعة.

عاد الهدوء إلى المجلس إلاّ من صوت مذيعة حسناء على شاشة التلفزيون تتحدّث عن أرقام وأسهم صاعدة وهابطة.

قام ابن برجان إلى حُجرته، المجاورة لمكتب الأمير. وكانت قسمات وجهه قد اكتسبت لونَ القلق.

لزم ابن برجان حُجرته إلى أن حضر من يُخبره بموعد الغداء. كان يأمل أن يرى رماح إلى المائدة بجوار الأمير. لكنّه لم يجد الاثنين. فقد اعتذر الأمير عن تناول الطعام مع رفاقه، مكتفياً بسندويتش خفيف أحضروه إلى مكتبه. «ورماح»؟ سأل ابن برجان. «لم يأتِ بعد. لعلّه لا يزال نائماً» قال أحدهم.

جلس ابن برجان على مقعده إلى المائدة. لم يأكل شيئاً واكتفى بشربة ماء.

نهض متوجّهاً إلى حجرته. لكنّه ما كاد يسير خطوتين حتّى رأى رماح مقبلاً مع صاحب الصوت الأجشّ. بدا كمن استيقظ تحت تهديد السلاح.

أقبل ابن برجان نحو رماح الذي تبسّم بتصنّع لم يخفَ على الشيخ، ونظر من حوله يبحث عن الأمير. أخبروه أنّه في مكتبه ينهي بعض أعماله.

سأله ابن برجان في لهفة «ما أخبار رحلتك»؟ كان التوتّر يحيط بالسؤال ككهرباء أضاءت الثريّا الكرستالية في القاعة. ضغط رماح على ساعد الشيخ، ومضى إلى مقعده حول المائدة دون أن ينطق بكلمة واحدة.

عرف ابن برجان أنّه لن يحصل على خبر في غياب الأمير، وتيقّن أنّ في الأمر شيئاً، فمضى إلى حُجرته. وفي هذه اللحظة كان الأمير يغادر مكتبه وقد سمع صوت رماح. نظر إلى الشيخ وسأله: «إلى اين يا ابن برجان»؟ فردّ بأنّه يقصد حُجرته.

أخذ الأمير بيد الشيخ إلى الحديقة الخلفية. وما لبث أن انضمّ إليهما رماح وقد امتلأ شِدقه الأيمنُ بطعام بدا من تحت خدّه السميك كبيضة تكاد تفقس. لم يكن قد شبع بعد.

جلس رماح على مقعده إلى يمين ابن برجان، الجالس إلى يمين الأمير حسب ترتيب اليوم الأول.

وضِعت صينية عليها إبريقا شاي أخضر وأحمر.

أشار الأمير إلى رماح أن يعود إلى الطعام إن أراد. «لست جائعاً يا طويل العمر» قالها وهو ينظر إلى المائدة من بعيد. ثمّ التقط عنقود عنب ضخماً، والتهم عنبة واحدة، واحدة فقط. أعاد العنقود إلى مكانه وربّت بطنه «لقد امتلأت»!

- «لم يوفّق رماح في رحلته أيّها الشيخ. أخبروه أنّ سلاّم قد مات». قال الأمير متعمّداً الكذب. أراد أن يرى ما يفعل الشيخ.

- «مات»؟ توقّفت أنفاس الشيخ وهو ينظر إلى الرجلين بذهول.

- «نعم.. مات. ألا يموت الناس»؟ وغمز الأمير بطرف عينه لرماح كي يبقى صامتاً.

طأطأ ابن برجان رأسه في حزن، ولم يلبث أن رفعه باتجاه الأمير وقال:

- «لا يمكن أن يكون قد مات..». وعقّب في استسلام مفاجئ «لا حول ولا قوّة إلاّ بالله.. لا حول ولا قوّة إلاّ بالله». ثمّ التفت إلى رماح عن يمينه وسأله: «أمتأكدٌ أنت أنّه مات؟ من قال لك»؟

تنحنح رماح ثمّ قال:

– «نعم.. يا ابن برجان. مات. أخبرني الغرناطي الذي أرسلتني إليه»؟

– «لا يمكن أن يكون قد مات»!

– «ولماذا لا يموت؟ فقد بلغ الرجل عمراً يقترب من ألف عام. لا يمكن أن يعيش إلى الأبد».

– «نعم.. نعم.. رحمك الله يا سلاّم». طأطأ رأسه مرّة أخرى وتمتم كطاعن في السنّ اكتفى من دنياه.

رأى الأمير دمعة تسقط من عيني الرجل. كانت دمعة لا تكذب، حاول ابن برجان أن يخفيها، فأخفى عينيه بيمناه وهو مطأطئ الرأس إلى الأرض وردّد في حزن:

– «لم يرحموه.. لم يرحموه».

– «من هم»؟ سأل الأمير.

– «كلُّهم.. كلُّهم».

أوقف الأمير تمثيليّته وقد أحسّ بسخفها.

– «أيّها الشيخ، كيف لا تصدّق أنّ سلاّم الذي بنى الحمراء منذ ألف عام قد مات، وتريد منا أن نصدّق أنّه لا يزال على قيد الحياة»؟

رفع ابن برجان رأسه مستغرباً:

– «ماذا تقصد أيّها الأمير»؟

– «أقصد أنّه ليس هناك سلاّم. ولا غرناطي. بل مجموعة دراويش ومعتوهين».

ثمّ نظر إلى رماح وقال «أخبره بما حدث معك»، ومضى إلى مكتبه. ومرّة أخرى جاءه الصوت ذاته «ترفّق بالشيخ»!

أمسك رماح بمعصم ابن برجان وشرع يروي ما حدث. لم يتحدّث عن التفاصيل المأسويّة التي صنعها للأمير البارحة. كان يريد أن يوصل الرسالة إلى ابن برجان بوضوح وينهي القصّة على عجل.

استوقفه ابن برجان في غير موضع. وأحياناً كان يطلب منه أن يعيد ما قال، ويُنصت بتركيز أكبر.

في خمس دقائق شرح رماح ما شرحه للأمير في ساعة.

– «أهذا كلّ شيء..»؟

– «نعم».

نهض ابن برجان وهو يهتزّ.. فيما أخذت العِزّة رماح وأضاف «الأمير غاضب. لقد خذلته.. ما كان ينبغي أن يصدّق قصّة خُرافية تعود إلى..»؟

– «لم تكن قصّة خُرافية..»! قاطعه الشيخ في حدّة، وتهاوى منهكاً على مقعده.

التقط رماح حبّة فراولة، وقبل أن تصل إلى فمه أمسكه ابن برجان بيد مرتعشة، وللمرّة الثانية سأله «هل هذا كل شيء»؟

– «للمرّة الأخيرة أقول نعم.. هذا كلّ شيء أيّها العجوز»! وضع الفراولة بين أسنانه وقضمها كحلمة نهد!

* * *

ساد المنزل الكبير، طوال الظهيرة، سكون أكبر منه. كأنّما صدرت أوامر للجميع أن يصمتوا. حتّى هواء الحديقة توقف عن الحركة.. والنخلة التي كانت أوراقها المروحية تصدر هسهسات لطيفة أصابها الخرس هي أيضاً. والنافورة التي يصدر منها خرير مياه متقطّع توقفت قطراتها في الهواء. وارتمت على الأرض العشبية نوتات غناء العصافير.

مضى يوم كامل لم يلتق فيه الأمير ابن برجان، ولا حتّى رماح نفسه. انصرف إلى أعمال خارج المنزل، ولقاءات أصدقاء قُدامى، وجولات على مزارع تحيط بالمدينة، كان يفكر منذ زمن أن يشتري واحدة منها.

قبل الرابعة من بعد ظهر اليوم التالي، صعد الأمير إلى حجرته في المنزل متعباً. ولزم رماح اليخت. كان الهدوء لا يزال يسيطر على المكان. ولولا ضوء منبعث من شاشة التلفزيون في المجلس لأمكن القول إنّ الزمن قد عاد بالمنزل إلى الأطلال التي كان عليها قبل أن يشتريه الأمير منذ عشر سنوات.

وحده ابن برجان كان هناك يجلس على مقعد غير مقعده،

ينظر إلى الستائر الحريرية البيضاء المزمومة في الأعلى كشفاه عجوز، فيما انفرجت قاعدتها على الأرض ككريمة انساب بعضها على بعض.

بقي ابن برجان على تلك الحال أكثر من ساعتين.

كان يفكر في العمر الذي أضاعه في حفظ أسرار لا يؤمن بها أحد.

لم يكن منزعجاً لانزعاج الأمير، وقد اعترف بذلك لنفسه. لكنّه كان منزعجاً من أجله هو.

أدركه اليأس.. واستسلم «لعلّها تخاريف رجل يقترب كلّ يوم من حُفرته»!

مع اقتراب المساء، بدأ بعض رفاق الأمير يفدون إلى المجلس، وتدبّ الحياة في البيت من جديد.

مضى الشيخ إلى حجرته حيث بقي ربع ساعة جهّز فيها متاعه البسيط، وأوراقه المتشقّقة التي أحضرها معه.

عاد إلى المجلس، إلى مقعده ينتظر نزول الأمير لوداعه قبل أن يعود إلى غرناطة. تأمّل الستائر من جديد، فوجدها مختلفة اللون. لم تكن حريرية، ولم تكن بيضاء. «نعم.. إنّه الخرف.. إنّه الاقتراب من الحفرة».

قدّموا له فنجاناً من الشاي. لم يلمسه، وشرب بدلاً منه كأس ماء. شغل نفسه برؤية ما تعرضه الشاشة على غير هُدى. هبط المساء، وغابت آخر خطوط الشمس. ولم ينزل الأمير بعد. سأل عنه فأخبروه أنّه يتجهّز لدعوة عشاء خارج المنزل، وسيغادر بعد لحظات.

بقي في مكانه إلى أن دنا منه أحد مرافقي الأمير يقول له إنّ الأمير سيراه في الغد.

وقف ابن برجان وهو يحمل أوراقه وقال:

- «بل أخبروه أنني أردت وداعه الآن. فأنا عائد إلى غرناطة».

- «يريد أن يراك في الغد. فلا يجوز أن تمضي دون أن تستأذنه على الأقلّ».

أبى الشيخ أن ينتظر إلى الغد، فسار إلى البهو وجلس قرب الباب الرئيسي على مقعد من القطيفة الحمراء ينتظر نزول الأمير لوداعه. نظر عبر الباب الذي يؤدّي إلى الخارج، فرأى عامل الحديقة يروي نبتة ياسمين، ومن ورائه عصافير تشرب من حوض ماء، وخُيّل إليه أنّه يسمع أشعّة الشمس تحتك بأوراق الشجر.

بعد لحظات أتاه صوت الأمير من أعلى الدرج الرخامي:

- «إلى أين العزم يا ابن برجان»؟

- «عائد إلى غرناطة أيّها الأمير، فما عادت لك حاجة بي هنا». قال وهو يقف مستنداً بيد إلى ذراع المقعد، ويحمل في الأخرى كتبه.

نزل الأمير واقترب من الشيخ حتّى شعر بأنفاسه على وجهه

- «أنت صديقنا بالحمراء وبلا حمراء يا ابن برجان»!

- «أيها الأمير.. أريدك أن تعرف أني لم أخدعك. ولست أطمع منك في شيء. إنّه عِلم اؤتمنت عليه فأبلغتك إيّاه، والله من وراء القصد».

- «لا عليك أيّها الشيخ. قد بذلنا جهدنا على أيّة حال».

- «هل ستمضي في بناء القصر أيّها الأمير»؟

- «نعم.. سأغادر إلى السعودية أوّلاً، ثمّ أعود بعد أسبوعين أو ثلاثة أبحث في تفاصيل المشروع مع شركات بناء هنا».

- «ربّما لو تريّثت قليلاً لكان أفضل..»! وضمّ أوراقه إلى صدره.

أثار إصرار ابن برجان حيرة الأمير وإعجابه في الوقت ذاته.

- «سنرى.. سنرى يا ابن برجان. عندما أعود ثانية..» قال الأمير وهو يمسك بساعد الرجل «إن كنت مُصرّاً على السفر، فليكن غداً صباحاً، يوصلك سائقي إلى باب دارك». ربّت كتف الشيخ وغادر دون أن ينتظر جواباً.

تبعه ابن برجان إلى باب سيّارته، وقبل أن يختفي فيها سأله «هل سيكون رماح معك عندما أراك في الغد»؟

ابتسم الأمير.. ومضى!

* * *

قبل أن ينتصف الليل، أوشك ابن برجان أن يربط جفنيه للأعلى كي يحول دون إطباقهما من التعب. عجز عن انتظار الغد، كما طلب الأمير، مؤثراً انتظاره الليلة ولو بقي مستيقظاً حتّى الفجر. ولزم مقعده في المجلس يحادث أحدهم إن حادثه، أو يلزم الصمت كعادته.

لم تطل غيبة الأمير. وقد فوجئ بوجود ابن برجان ينتظره في المجلس.

- «ما دفعك إلى البقاء مستيقظاً حتّى الآن يا ابن برجان»؟
- «أحببت أن أودعك الآن أيّها الأمير، فلربّما غادرت قبل الفجر».

لم يجب الأمير بشيء، وجلس على مقعده يواجه التلفزيون. أجرى اتصالاً هاتفياً واحداً، ثمّ نهض وأخذ بيد الشيخ «تفضل معي يا ابن برجان»، ومضى به إلى مكتبه، وقبل أن يغلق الباب دونهما، طلب أن يستدعوا له رماح.

قدّم الأمير لابن برجان ظرفاً كذاك الذي أعاده السائق يوم أوصله أوّل مرّة إلى غرناطة. لكنّه بدا أكبر بقليل.

- «ما هذا أيّها الأمير»؟
- «هديّة منّي، أريدك أن تقبلها»!
- «تعرف أنّي ما جئت لهذا أيّها الأمير، ولست أريده».

وضع الأمير الظرف على طرف مكتبه في اللحظة التي دخل فيها رماح.

- «هل أنت عائد إلى غرناطة»؟
- «نعم. . أذهب بعدها إلى. .» وصمت ابن برجان.
- «إلى أين أيّها الشيخ»؟ سأل الأمير.
- «أذهب بعدها إلى المغرب. . إلى فاس. لعلّي أذهب أيضاً إلى الشاون».
- «لا تقل إنّك ستبحث عن سلاّم»؟

بقي ابن برجان صامتاً، ثمّ هز رأسه ولم يفهم الأمير شيئاً. .

- «ألا تزال مقتنعاً بأن سلاّم بشري لا يزال على قيد الحياة يا ابن برجان»؟ سأل رماح مستنكراً عناد الشيخ. وقبل أن يسمع جوابه أضاف «ليتك كنت معي، لسمعت ورأيت بنفسك. ربّما كنت توفّر مشقّة سفرك إلى هناك».
- «نعم. . ليتني كنت معك».
- «وهل كان للأمر أن يختلف»؟ سأل الأمير.

نظر إليه ابن برجان

- «أحياناً يقود مجهود ضئيل إلى نتائج عظيمة. . مجهود أقلّ بكثير ممّا بذله رماح في رحلته».
- «هل تعلم أجمل ما في القصّة كلّها يا ابن برجان»؟ سأله

الأمير بمرح «إنّها الإثارة التي كنّا في حاجة إليها. إثارة أخرجتنا من ملل كاد يفتك بنا. أنا بين عملي وأسفاري، وأنت بين بيتك وكتبك، ورماح بين نسائه ولهوه. جميعنا كان في حاجة إلى تجربة كهذه. أيّاً كانت نتائجها، فأنا سعيد بها». وتابع الأمير حديثه كمن يسلّي قلب الشيخ قبل وداعه «لقد عشنا كلّنا لحظات من الترقب.. كأنّنا ننظر إلى مشهد سينمائي. كلّ شيء كان مثيراً.. أنت، أنا، رماح، الحمراء، سلاّم، الساروتي، رائحة الخبز، صليل المفاتيح، تطوان.. الشاو...»

قاطعه ابن برجان فجأة:

- «صليل مفاتيح.. أي صليل»؟
- «تلك التي كان يحملها الساروتي في رقبته». قال الأمير.

التفت ابن برجان إلى رماح:

- «لم تخبرني بشأن المفاتيح»؟
- «بلى.. قلت لك إنّه كان يصدر عن الرجل صليل معدن».
- «لم تقل إنّها مفاتيح».
- «وهل يحدث الأمر فرقاً»؟

نظر ابن برجان إلى عينَي رماح، وتمتم كمن يحدّث نفسه، ثمّ هتف بنبرة من اكتشف شيئاً خطيراً: «يا إلهي.. يا إلهي». والتفت إلى الأمير قائلاً في ما يشبه الهذيان: «الساروتي، الساروتي أيّها الأمير». وجد صعوبة في التقاط أنفاسه بينما صدره يصعد ويهبط بعنف «إنّه ليس اسمه. إنّه كُنية نسبة إلى المفاتيح التي في رقبته. الساروت لدى أهل المغرب هو المفتاح. يا إلهي.. إنّه

ليس اسمه إذاً، ليس اسمه». ثمّ أغمض عينيه على صوت دم يندفع في عروقه، وسأل رماح لاهثاً: «كم مفتاحاً رأيت في رقبته..»؟

- «ثلاثة مفاتيح.. ربّما أربعة.. لا.. لا.. ثلاثة فقط. أحدها كبير.. والآخران صغيران. لا يبدوان كمفتاحين، بل حلقتان تص..».

قاطعه ابن برجان وقد أمسكه من رُسغه:

- «كيف يبدو المفتاح الكبير؟ هل تذكر شكله؟.. هل تذكره»؟

وقبل أن يسمع منه جواباً، غادر ابن برجان المكتب على عجل إلى حُجرته، ثمّ ما لبث أن عاد مهرولاً وهو يحمل كتاباً جلدياً عتيقاً. نظر رماح إلى أميره مستغرباً، فبادله الأخير نظرة بالمثل.

أخذ ابن برجان يقلّب صفحات كتابه بيدين ترتعشان، وعند صفحة عليها بعض الرسوم توقّف. أمسك الكتاب بكلتا يديه ووضعه في شكل رأسي أمام رماح «انظر.. انظر إلى هذه الرسمة. هل المفتاح الذي رأيته يشبهها»؟ وقرّب الكتاب حتّى كاد يلامس أنف رماح «هل المفتاح المعلّق في رقبة الساروتي يشبه المفتاح المرسوم هنا.. هل يشبهه»؟

أخذ رماح الكتاب بين يديه يدقق النظر، ثمّ تذكّر المفاتيح التي رأى انعكاس الضوء الخافت عليها في رقبة الساروتي أمام القصبة القديمة «إنّه يشبهه..»، قال وهو يعيد الكتاب إلى ابن برّجان.

تناول الأمير الكتاب ليرى رسمة المفتاح، ثمّ ضرب بكفّه على جبينه عندما تذكّر أنّه رأى نقشاً لهذا المفتاح نفسه من قبل. نعم إنّه المفتاح الذي كان أعلى «باب العدالة» على مدخل الحمراء.

رفع ابن برجان رأسه في الهواء ثمّ قال وقد أخذ صوته يرتعش «إنّه هو.. إنّه هو أيّها الأمير.. إنّه الساروتي». ثمّ ألقى بجسمه الواهن على المقعد، وقال بصوت خنقه الدمع «.. إنّه سلاّم»!



الصندوق الصغير

كان منظر الرجال الثلاثة يثير الشفقة. بدوا أشبه بأطفال يتحلّقون حول كتاب سيقرّر مصيرهم الأبدي. وكانوا يرتعشون.

علقت شهقة الأمير في فضاء الغرفة. أمّا رماح فقد كانت له شهقة استعراضية، وإن شئنا الدقة قلنا إنّها جنائزية، فما تعنيه قصّة اكتشاف وجود سلاّم أنّه عائد إلى الشاون، وربّما تطوان، ثمّ يعلم الله أين!

بعد أن استوعب الرجلان ما اكتشفه ابن برجان، أظهر الأمير شيئاً من حذر. ويمكن القول إنّه أظهر أيضاً شيئاً من رضى وخوف. رضى لأنّ فراسته لم تخنه بشأن ابن برجان، وخوف أن يعود إلى نقطة البدء.

- «المفتاح الذي يتدلّى من رقبة الساروتي» قال ابن برجان ولمعة المنتصر في عينيه «إنّه مفتاح القصر.. ولن تجد شبيهاً له في العالم كلّه سوى في ثلاثة مواضع داخل الحمراء.. واحد في جنّة العريف، وآخر يعلو باب الشريعة القريب من القلعة، والثالث..»

قاطعه الأمير:

- «الثالث فوق باب العدالة، مدخل الحمراء الرئيسي».

نظر إليه ابن برجان مستغرباً:

- «هل رأيته أيها الأمير»؟

- «نعم.. رأيته». ثمّ التفت إلى رماح «يوم دخلنا الحمراء في اليوم الأول. أتذكر الطريق الترابي الذي صعدناه ثمّ توقفنا عند بوّابة كبيرة قرب موقف الحافلات»؟

- «نعم.. نعم.. أذكر، لكنّي لم أرَ المفتاح».

- «أنا رأيته».

- «إنّه مموّه إلى درجة تصعب رؤيته» قال ابن برجان «..فكيف استطعت أن تراه أيها الأمير»؟

- «لا أعرف. رفعت رأسي إلى أعلى البوّابة فوجدته».

قلب ابن برجان شفتيه مستغرباً، ثمّ أشار إلى الكتاب الذي يحمله، ويبقيه على صدره إذا نام «لا أحد يعرف سرّ المفاتيح الثلاثة. ولا تكشف الكتب القديمة الكثير عنها. هي موزعة على أماكن بنيت في تواريخ مختلفة، لكنّها كلّها صورة طبق الأصل بعضها عن بعض. ربّما تجد تصاوير لها في كتب حديثة، لكنها أيضاً لا تخبر شيئاً عن سرّها. وإن كان لأحد ألاّ يدرك لِمَ هي هناك، ولا إلامَ ترمز، فإن شخصاً يحملها في عنقه لا بدّ أن يكون على صلة بها وعِلم بأمرها».

كان هذا الدليل الأول الذي قدّمه ابن برجان ليدعم وجهة نظره بشأن الساروتي.

الدليل الثاني كان في عينَي الرجل ذاته. قال الشيخ «لو رأى رماح عينَي الساروتي لأدرك أن الرجل الذي أمامه ليس معتوهاً أو من دراويش الغرناطي. من أجل ذلك كانتا شبه مطبقتين معظم الوقت».

وتمثل الدليل الثالث بما هو أبسط، بيده. فقد رفض الساروتي، بعنف، أن يأخذ رماح بيده ساعة دعاه إلى المقهى.

«آه.. آه تذكّرت ذلك». قال رماح ومسح جبينه بمنديل مقلّم يشبه ثياب سباحته.

بقي الأمير على حذره. وقد أدرك ابن برجان ذلك، وتفهم أسبابه. فقصّة سلاّم عصيّة على التصديق.

- «لكن لماذا أخفى اسمه عندما سألته»؟ سأل رماح.

- «أخبرتكم أن كثيرين لم يكونوا على وفاق مع الرجل. كما أنّ أحداً ما كان ليصدّق من يكون. لقد انتظر الرجل الموت طويلاً، وأراد أن ينساه الجميع. لكنّ الموت لم يأتِ بعد، والنسيان موت من نوع آخر، كما هو بالقدر ذاته حياة أخرى»!

هل كان جواب ابن برجان صحيحاً..؟

ربّما..

انقلبت الموازين في طرفة عين. فحين بدا أنّ كل شيء قد انتهى، اشتعلت النار فجأة من رماد يحتضر.

أحسّ الأمير بذنب تجاه الشيخ، فمسّد يده بيده في لطف وقال:

- «أثبتَّ أنت من الصدق أكثر ممّا أثبتُّ أنا من الصبر. إنّه الخير الذي فيك يا ابن برجان قد انتصر على وسوسات النفس».

- «الخير يطارد الإنسان بطبعه، والإنسان يطارد الشرّ بطبعه»! قال ابن برجان وبقايا ارتعاشات خفيفة لا تزال تهزّ أطرافه. إنّها الأسطورة عندما تصبح حقيقة.

لم تبدّد عبارات الأمير الودّية ما في نفسه من حيرة أخفاها: ما العلاقة التي تربط الساروتي بابن برجان حتّى يهتزّ من أعماقه لحظة اكتشاف مكانه؟ وأيّ سرّ يُخفيه الشيخ؟

بدت تلك اللحظات أشبه بمحور أساسي في حياة ابن برجان. فقد كان من فرط تأثّره كمن قُدّر له أن يأتي إلى هذه الدنيا من أجل البحث عن سلاّم فقط!

ساد المكتب صمت لم يقطعه سوى أصوات أوراق تفد عبر الفاكس.

جلس ابن برجان وقد أعياه التعب وتصبّب جبينه بما يكفي من الأفكار. حنى رأسه على كتابه كمن يقبّله.

أخذ الأمير ينظر إلى الأوراق الوافدة إليه. أمّا رماح فكان يفكّر في السائح الإسباني العجوز الذي التقاه في الشاون.. سيراه مرّة أخرى!

لاحت على ابن برجان علامات شباب مفاجئة. فقد اختفت بعض تجعّدات رقبته، وأصبحت جبهته أكثر صفاء من جبهة طفل، ولولا المبالغة لأمكن القول إنّ رائحة حليب تأتي من فمه! نهض بعنفوان وهو يقلّب بعض صفحات كتابه. ثمّ التقط ورقة قسّمها إلى قُصاصات صغيرة يتّخذها كعلامات لبعض صفحاته. كان يعامل الصفحات بإجلال ولا يثني طرفاً منها. بدت القُصاصات بين طيّاتها كأضواء صغيرة تسبح في عهد قديم.

بعد أن استأذن الأميرَ الضيفُ في مطالعة الكتاب، رأى في الأماكن المعلمة صوراً ترافقها كتابات غريبة.

- «ما هذه الكتابة يا ابن برجان»؟ سأل رماح وهو يتطلّع

بفضول إلى بطن الكتاب المفتوح بيد أميره. ثمّ تابع «آه.. فهمت. هذه كتابة بربرية»!

- «لا.. إنّها ليست بربرية، إنّها الألخميادو». قال ابن برجان.

لفتت الكلمة انتباه الأمير. فقرّب إليه الكتاب أكثر. كانت الخطوط سوداء، أمّا الصور فبألوان رصاصيّة.

- «وما هذه الألخم.. ألخم.. » وتلعثم رماح في نطق الكلمة

- «الألخميادو.. إنّها لغة الموريسكيّين القُدامى».

- «ومن يكون الموسكيون.. روس»؟

- «الموريسكيون لا الموسكيون. إنّهم العرب الذين بقوا في الأندلس بعد سقوطها. وهذا المصطلح لم يكن معروفاً من قبل. ظهر بعد ما يقارب الثلاثين عاماً من السقوط. وقد كانت لهؤلاء كتابة خاصة بهم تسمى الألخميادو وهي التي تراها هنا. كتابة عربية لكلمات إسبانية، قشتالية قديمة». وتابع ابن برجان «لا يوجد كثير من هذه الكتب اليوم. وما بقي ففي المتاحف فقط»!

- «وهل أوردت تلك الكتب قصة سلاّم»؟ سأل الأمير.

- «لأكون صادقاً سأقول إنني لا أستطيع قراءتها كلّها».

نظر الأمير إلى الكتاب بتقدير، وفي صفحة عُلِّم أسفلها بقُصاصة بيضاء، طالعته صور أبنية وهندسات ونقوش مغربية الطراز. وفي زاوية تقترب من خندق الكتاب المعتم، رُسِم إطار في داخله علامة المفتاح التي أشار إليها ابن برجان. وفي صفحة

أخرى، لا تبعد كثيراً عن الأولى، رسمة مماثلة. وفي صفحة ثالثة رسمة هي الأكبر والأكثر وضوحاً للمفتاح.

كان للمفتاح شكلٌ غريب. يمكن لمن يراه أن يخمّن عودته إلى حقبة قديمة. فهو طويل بشكل لافت. صُنع من حديد أسود. في أسفله حلقتان تحيطان بنهايته. وإلى الأعلى قليلاً حرفان ناتئان على شكل 25 بزوايا حادّة، حتّى يبدو الرقمان كما لو كان أحدهما انعكاساً للآخر. في الأعلى وقرب ممسك المفتاح نتوء صغير يشبه بطن حامل في شهرها السادس. وعلى رأس المفتاح كُرة تستقرّ على وردة متفتّحة، مسندة كلّها إلى قاطع عرضي أنيق. ويتدلّى من رأس المفتاح شريط به عقد ينتهي بما يشبه رأس قِمع.

- «لا أحد يلحظ المفتاح، مع أنّه موجود في ثلاثة أماكن في الحمراء» قال ابن برجان للمرّة الثانية فيما هو يشير بإصبعه إلى الرسم.

- «ولماذا رأيته أنا يا ابن برجان»؟ سأل الأمير وأطبق الكتاب على إصبعه في موضع الرسم.

- «ربّما هو القدر عندما يأتي على هيئة قصّة» أجاب الشيخ.

- «أو مفتاح»، قال الأمير. وفتح الكتاب من جديد يتأمّل الرسم، وأغمض عينيه يتذكّر ذلك الصباح.. واقفاً أمام «باب العدالة».

لو كان بعض مرافقي الأمير معهم لقال أحدهم «إنّها بشارة من السماء لك يا طويل العمر». والذي حدث بعد ذلك أنّ رماح قالها!

أعاد الأمير الكتاب إلى الشيخ، وجلس وراء مكتبه. كان

يفكّر ويبتسم وينظر إلى ابن برجان. إنّها علامات الحذر والرضى والخوف في آن. لكنّ قصّة المفتاح، واكتشاف الأمير لموقعه المموّه على رأس البوّابة العالية، أخذت ترجح كِفّة الرضى والإقدام بعزم على ما هو ماضٍ فيه، بصرف النظر عن النتيجة. فإحساس التميّز بات هاجس الأمير الشابّ. وفي قرارة نفسه أنّه سيكون متميّزاً ببناء قصر قُدّر له أن يرى مفتاحه الذي لم يره كثيرون..

قطع رماح أفكار الأمير وهو يسأل ابن برجان عن قصّة مصافحة سلاّم، لِمَ هي مستعصية إلى هذا الحدّ.

- «ألا تخبرك كتبك القديمة بشيء»؟

- «لا.. لكنّي عرفت أنّه لا يصافح أحداً. ربّما هو الماضي يصرّ على الانفصال عن حاضره»!

- «وماذا عن عينيه، لِمَ لا يكشف عنهما»؟ سأل الأمير.

- «كي لا تكشفا لذّة الموت التي لم تأتِ»!

- «وهل ترى في الموت لذّة»؟

- «إنّه أجمل فعل نختم به حياتنا»!

لم يملك الأمير ردّاً.. وكلّ ما صدر عنه زفرة ارتياح «أخيراً.. وصلنا إلى ما نريد».

لكنّ ابن برجان كان يدرك أنّ الرحلة لم تقترب من نهايتها، بل إنّ البداية لم تأتِ بعد!

* * *

انهمر المطر طوال الليل. وفي الصباح كشفت السماء عن مطر جديد قادم. وتأجّلت رحلة الشاون، التي عزم عليها الرجال، حتّى حين.

نظر الأمير من وراء ستارة المجلس «سننتظر حتّى بعد الظهر، فإن صفت السماء سرنا». قال وهو يشعر بغبطة المطر.

نظر إلى ساعته، فكانت قد تجاوزت العاشرة بقليل. عاد إلى مقعده يواجه الشاشة الضخمة، وأخذ يقلّب المحطات الفضائية والجرائد.

لم يأت رماح بعد، لا يزال نائماً، وما كانت للأمير حاجة به فيوقظه. حتّى ابن برجان لم يكن موجوداً، بقي يقرأ في كتبه منذ أفطر مع الأمير قبل ساعتين.

أحضر أحدهم مجموعة أوراق، وقّع الأمير بعضها وترك بعضها الآخر على طاولة تجاوره. أجرى اتصالاً هاتفياً، ثمّ اتصالاً آخر. أخذ الأوراق كلّها وقام إلى مكتبه.

كذئب ينتظر الانقضاض على فريسة تركها أسد، التقط أحد

المرافقين جهاز الريموت كنترول وراح يبحث عن برامج أخرى، بعيداً عن الأرقام والسياسة التي قتلهم الأمير بها.

بعد ساعة دخل رماح إلى المجلس وهو يتثاءب. ومع أنّ أحداً لم يطلب إيقاظه، فقد ظهر أنّ ساعته البيولوجية قد باتت تسير حسب إرادة الأمير والصوت الأجشّ أكثر من إرادة جسده!

ظهرت على الشاشة الكبيرة مجموعة فتيات يقدّمن إعلاناً مثيراً. ثمّ ظهرت أم كلثوم تغني «فكّروني». وقف مرافق للأمير، متقدّم في السنّ، أمام الشاشة يميل برأسه طرباً «الله الله». نظر إليه رماح متأفّفاً «الله الله على ماذا؟ هل تحبّ رؤية الموتى في الصباح»؟

ثم سأل عن الأمير فأخبروه أنّه في مكتبه.

ظهر ابن برجان على باب المجلس، فحيّا الحضور وجلس على مقعده. أخذ ينظر إلى الشاشة يصغي لغناء أمّ كلثوم. كان منتشياً، ولم يعرف رماح ما إذا كان ذلك بفعل الأغنية أم انتصار البارحة.

أتى الصباح هادئاً، بلا معارك كلامية وألسنة عطنة. دخل أحدهم إلى المجلس ومال على رماح يخبره بأنّ الأمير يطلبه.

سار كطاووس هندي إلى المكتب الأبنوسي. طرق الباب ودخل. جلس قُبالة الأمير الذي كان يتحدث على الهاتف ويكلّف أحدهم بتسوية أعمال نيابةً عنه بسبب تأجيل رحلته بضعة أيام أخرى.

بعد أن أنهى مكالمته سأل رماح عن ابن برجان «أين هو»؟ فأجاب: «في المجلس.. مع الموتى»!

أشعل الأمير سيجارة، واستدعى الشيخ.

دخل ابن برجان مكتب الأمير وجلس. بدأ الأخير يتحدث عن رحلة الشاون وأنّه سينتظر ريثما يصحو الجو بعد الظهر، وإلاّ كان السفر صباح الغد.

بقوا يتحدثون عن الرحلة، مع أسئلة كثيرة طرحها الأمير على ابن برجان «هل يملك سلاّم أوراقاً عن الحمراء يحملها معه»، «كيف سيكون اللقاء، وكيف سيبدأ العمل»؟ وأسئلة أخرى لا يملك ابن برجان جواباً لها، أو لعلّه يعرف. لكنّه اكتفى بالقول «سنعرف كلّ شيء عندما نلتقي الرجل».

حان موعد الغداء مبكراً ساعة عن موعده. فقد طلبه الأمير كذلك على أمل أن تنكشف السُّحب ويمضي، مع رفاقه، إلى المغرب. كان الأمير يستعجل السفر عملاً بنصيحة ابن برجان «كي يجدوا سلاّم في الشاون خشية أن ينتقل إلى مدينة أخرى».

تحققت أمنية الأمير قبل أن ينتهي من غدائه. فقد عاد للسماء صفاؤها. وطمأنتهم نشرة الطقس بأن ما تبقّى من اليوم سيكون صحواً حتّى صباح الغد.

عند الثانية بعد الظهر، انطلقت الرانج روفر تسلك طريق الرحلة الأولى.

جلس الأمير بجوار السائق الإسباني. وفي الخلف رماح وإلى يساره ابن برجان وفي الوسط مكان حارس الأمير الذي لم يأتِ مجموعة أوراق وكتاب ابن برجان العتيق.

بلغت السيّارة الجزيرة الخضراء ثمّ طريفة بعد ساعة. ومن

هناك استقلّوا عبّارة تقلّهم إلى طنجة. كان الأفق يُغري بالوقوف في القسم المكشوف من العبّارة، رغم لسعة برد خفيفة. نظر الأمير إلى الشاطئ الإسباني يبتعد، بينما وقف ابن برجان إلى جواره، وأشار إلى جبل طارق. أخذ الأمير ينظر ويتخيّل طارق بن زياد يشير بيديه مرحّباً وهو منطلق في سُفن خشبية نحو إسبانيا يفتحها من جديد. تخيّل نفسه، للحظة، على واحدة من تلك السفن.

قطع حبل أفكاره رذاذ دُسُر العبّارة، فداخله حزنٌ لذيذ وهو ينظر إلى سُحب بيضاء أخذت تتراكم من جديد ككُرات قُطن عالقة في الفضاء.

أحسّ بخصومة بين السحب المطرية وأرض المغرب، إذ ما كادت العبّارة تنحرف باتجاه مرفأ طنجة حتّى وجد المدينة تسبح في شمس قوية.

عندما غادروا الميناء، كانت الساعة تشير إلى الثانية والنصف بعد الظهر بتوقيت المغرب. ولم يحُل اندفاع الأمير السريع إلى الشاون دون رغبته في اكتشاف طنجة، ولاسيّما أن الوقت ما زال مبكراً.

بدت المدينة، رغم اختلافها الشاسع عن ماربيا، أجمل من عروس. أحسّ بانجذاب إليها. وأخبره ابن برجان أنّها مدينة قد سحرت الكثيرين، ومنها انطلق ابن زياد. تمنّى الأمير لو استطاع أن يقول إنّه رآه لتوّه، يلوّح له ماضياً إلى الشاطئ الإسباني!

• تمنّى أن يعود إلى الوراء قليلاً.. قليلاً.. ألف عام فقط،

ليرى كم هم الناس هنا، مثل الذين رآهم يسيرون في أزقّة غرناطة هناك، بين ضباب الدانتيل!

تأمّل الجبل الصغير الذي ترتفع عليه المدينة القديمة في طنجة. أحسّ بالألف عام تسكن هناك. . وتمنّى لو كان هو أيضاً هناك. ليسأل عن سلاّم، ويلتقيه وجهاً لوجه، فيأخذ منه أسرار الحمراء، والألف عام.

أخرج الأمير من شرنقة خياله صفيرٌ حادٌّ من رماح، لم يعرف ما إذا كان إعجاباً منه بالمدينة أم لحسناء تلبس ضيّقاً تجاوزتهم على عجل!

في مطعم شعبي قريب من بوليفار طنجة، جلس الرجال يتناولون غداءهم من السمك الطازج. مع المساء، مضوا في طريقهم إلى تطوان، ومن هناك إلى الشاون.

كان أذان المغرب قد اقترب عندما توقّفت الرانج روفر أمام الباحة الصغيرة لفندق «أطلس الشاون» الذي يعلو المدينة. وكانت ثلاث حُجرات وجناح كبير قد حُجزت منذ الصباح الباكر باسم الأمير.

في البهو المطلّ على المدينة أُخذ الأمير بالمنظر، وحثّه الطقس الربيعي على زيارة أزقّتها العتيقة.

- «هل تحسّ بتعب يا ابن برجان أم ترغب في مرافقتنا أنا ورماح في جولة على المدينة»؟

- «لو لم ترغب في ذلك أيّها الأمير لمضيت وحدي».

أنزلهم السائق الإسباني أمام مدخل المدينة القديمة، وتوقّف

الرجال في ساحة «وطاء الحمام» المواجهة للقصبة. كانت الإضاءة الصفراء القوية على الحيطان القديمة تذكّر بالحمراء. هنا أعاد رماح تصوير مسلسل العثور على الساروتي، أو سلاّم ذاك الصباح. كان رماح هو المخرج والبطل والقصّة. «رأيته ينزل من هناك. .» قال وهو يشير إلى الزقاق المتعرّج للأعلى قرب المقهى. «ورأيت مداخن الخبز من هنا. . وفي أعلى الزقاق أطلّ شبح من ضباب الصباح، حاولت أن أتحدّث إليه بعد أن صعدت باتجاهه، فلمّا وصلت كان هو قد انحدر مهرولاً إلى الأسفل ساحباً معه كلّ رائحة الخبز». كان الأمير يستمع كمن يرى فيلماً، ومثله فعل ابن برجان. وقد لاحظ الأمير على الشيخ بعض اضطراب وكثرة تلفّت، وظهر كشابّ جموح يترقّب شيئاً خطيراً، أو يبحث عن شيء.

أثار حيرة الأمير ورماح على السواء أنّ مظاهر الشباب التي لاحت على الشيخ كانت حقيقة أكثر منها مجازاً، منذ اللحظة التي اكتشف فيها أمر الساروتي. حتّى إنّه مضى يصعد الزقاق المقصود بعزيمة شابّ في العشرين من عمره، دون أن تظهر عليه علامات الإرهاق. بعكسه كان رماح، إذ بدا صدره كمنطاد يمتلئ بالهواء وينكمش مع كلّ خطوة. ولم يكن الأمير بأفضل منه حالاً على أيّة حال.

أطبق الظلام على معظم طرقات المدينة إلاّ من ضياء شحيح لمصابيح مهترئة تلتصق بالحيطان الحجرية. ومن مكان أعلى السفح الذي تنام عليه الشاون، بان المسجد المهجور، ومن تحته نبعُ الماء، ثمّ سلسلة متداخلة من الأزقّة تطلّ على قصبة المدينة.

ما كان لشيء أن يذكّر الأمير بالحمراء وتلّة البايسين أكثر من هذا المكان. لقد أصبح المنظر جزءاً من ذاكرته، وتسارعت دقّات قلبه، حتّى لتكاد تسمعها بيوت المدينة. هناك أدرك الأمير أنّ قصر الحمراء الذي يريد أن يبني مثله لم يعد مجرّد قصر، لقد أصبح نبضة قلب!

تلك الليلة، أغمض الأمير جفنيه سعيداً، لكنّ النوم أبطأ عليه. وفيما هو كذلك رأى في الفجوة السوداء، بين عينيه والجفنين، قصر الحمراء كما رآه ذاك المساء من تلّة البايسين. وعلى الغشاء الداخلي لجفنيه تمايلت ظلال القصر كراقصة غجرية!

* * *

بعد أذان الفجر بلحظات، اجتمع الأمير ورماح والسائق في بهو الفندق. ولم يكن ابن برجان في حُجرته. سألوا عنه موظف الاستقبال، فقال إنّه ترك الفندق منذ نصف ساعة تقريباً.

- «أتعرف إلى أين»؟
- «لا يا سيّدي. لم يقل شيئاً».

أقلّتهم السيارة البيضاء وهم في حيرة من أمر ابن برجان.

ولمّا بلغوا بوّابة المدينة القديمة توقّفوا، وترجّلوا.

ساروا حتّى «وطاء الحمام» أمام القصبة. كانت صلاة الفجر قد أقيمت، فدخل الأمير بعد أن توضّأ إلى المسجد ليصلّي. تنهّد في صلاته بعد أن استطاع تمييز ظهر ابن برجان في الصفّ الأول. بعد الصلاة تجمّع الأربعة في الساحة. كانت السماء صافية، ونصف القمر يلوح كعملة ذهبية في طرف بعيد. ودون أن ينبس أحدهم بكلمة ساروا إلى حيث الزقاق الصاعد إلى الأعلى، حيث رأى رماح سلاّم المرّة الأولى. أشار الأمير على السائق أن يبقى في المقهى الذي كان صاحبه يعيد ترتيب المقاعد على مدخله. تجاوزوا المنعطف الأول، وبدأوا بالصعود.

«هنا رأيته». قال رماح وهرول بضع خطوات إلى أن توقّف أعلى الزقاق يلهث.

خيّم صمت يشبه الصمت الأول، والضوء الشحيح على حاله. ورويداً رويداً، امتلأ المكان برائحة خبز يُنضَج. تصبّب ابن برجان عرقاً من فرط حماسته، وهو ينظر إلى الطريق الصاعد حيناً وإلى الاتجاه النازل حينا آخر. مضت خمس دقائق. ازدادت رائحة الخبز، وحبّات العرق على جبين ابن برجان. مضت دقائق أخرى وهم صامتون ينظرون حولهم. ثمّ خمس دقائق إضافية.. لا شيء. لم يظهر الرجل. اعتراهم خوف لا تخطئه عين. ابن برجان خائف أن يفقدوا أثر الرجل بعد أن عرفوا من يكون. رماح خائف أن تفقد روايته مصداقيتها. والأمير خائف بسبب خوف الاثنين!

قرّروا أن يذهب كلُّ واحد منهم في اتجاه. بعد ربع ساعة عادوا جميعاً إلى النقطة الأولى. انتظروا حتّى لاحت تباشير الصباح. وأمكن تمييز الأزقّة الصاعدة والهابطة، وقطط تصعد وتهبط، ولا أثر لإنسان.

جلس رماح على كومة ورق مقوى تراصّت كألواح بسكويت. كان ينظر في كل اتجاه، وحتى إلى الأعلى، كما لو كان الرجل سيهبط إليه من السماء أو يتدلّى من الأسطح القرميدية.

تفرّقوا مجدّداً كلٌّ في اتجاه مختلف عن الأول، وانتهوا بلا نتيجة عند رأس الزقاق الصاعد. لم يظهر الرجل. وأشرقت الشمس.

- «هل أنت متأكد أنّك رأيته هنا»؟ سأل ابن برجان في لهفة اليائس.

- «نعم.. هنا بالضبط»!

- «لعلّه لا يزال نائماً» قال الأمير وقد بدأ صبره ينفد. ثمّ علا صوته في انزعاج «ما أدرانا أنّه الآن لا يسلك طريقاً آخر»؟ وقد كان السؤال منطقياً. فلماذا حصر الرجال بحثهم في هذه المنطقة وحدها، ورائحة الخبز تملأ المدينة كلّها؟ والزقاق الذي يقفون فيه تمتدّ منه أزقّة كثيرة، يمكن لأيّ عارف بها أن يختفي عن جيش كامل لو أراد.

سار الأمير إلى أسفل الشارع حيث الساحة والمقهى. تبعه رماح فيما بقي ابن برجان واقفاً دقائق أخرى قبل أن يتبعهم.

وما لبث الأربعة أن اجتمعوا حول طاولة خشبية في المقهى.

- «أقترح أن يمضي كلٌّ منا في اتجاه، ثمّ نلتقي هنا بعد نصف ساعة». قال الأمير، ونظر إلى ساعته. هذه المرّة طلب من السائق، الذي لا يعرف ما القصّة، أن يبحث معهم عن الرجل الذي رآه ذاك الصباح مع رماح.

- «المعتوه..»؟

- «نعم.. المعتوه»!

للوهلة الاولى تبدو نصف ساعة للبحث في أزقّة مدينة صغيرة كافية. لكنّها لم تكن كذلك. فمع ضوء الصباح الذي بدأ ينتشر، كان كلّ ما في المدينة يشبه بعضه البعض: الأبواب والحجارة والأزقّة، ورائحة الخبز.

عادوا إلى المقهى والقلق في أعينهم كراية ترفرف على سارية سَفينة!

«أين اختفى الرجل»؟ سأل رماح ومسح جبينه براحة يده.

أخذت أشعّة الشمس تغمر المدينة. لم يتحرك أحدهم من مقعده، ولم يتفوه بكلمة. وانقطعت الأصوات إلاّ من سيّارة أو اثنتين في البعيد، ومواء قطّة تحكّ ظهرها في دلال بقدم الطاولة.

«حسناً.. لم يظهر الرجل». قال الأمير، ونظر إلى ابن برجان «أعرف ما ستقول أيّها الشيخ: إن لم تعثر على الشيء فلا تنفِ وجوده. حسن. لم نعثر على هذا الشيء. أين تراه يكون موجوداً»؟

أجاب ابن برجان فيما الأمير يراه لأول مرّة مُمسكاً بمسبحة خشبية «إنّه قريب من هنا.. أشعر بذلك. ربّما سلك طريقاً آخر كما قلت أيّها الأمير. لا أعتقد أننا بحثنا في كل مكان. والرأي أن ننتظر قليلاً، ثمّ نعاود البحث كلّ ساعة».

- «وإذا لم نجده»؟

- «نعود غداً مرّة أخرى وفي الوقت نفسه، ونفعل الشيء ذاته»!

الهدوء والانتظار اللذان لا يعرف أحد إلى متى، أشعرا رماح بملل لم يعتده من قبل. فلا شيء هنا سوى تلك القطّة اللعينة. أحسّ بأنفاسه تختنق، فعلا صوته يطلب صاحب المقهى. كانت صرخة في الواقع، أخافت القطّة التي تحوّلت إلى قدم الطاولة الأخرى تحكّ مؤخّرتها بها. لم يكن الرجل هو صاحب المقهى الذي التقاه رماح في المرّة الأولى.

سأله عن الرجل الآخر الذي يعمل معه، فأخبره أنّه سيأتي في العاشرة، أي بعد ثلاث ساعات من الآن.

طلب كأس ماء، ثمّ سأله عن رجل يقال له الساروتي:

- «هل تعرفه»؟

- «نعم أعرفه». أجاب صاحب المقهى. وسرعان ما حدّقت به أنظار الرجال.

- «وهل تراه كلّ يوم»؟

- «لا.. ليس كلّ يوم».

بدا كلٌ منهم كمن ألقي بجبل من فوق ظهره. إحساس ابن برجان كان صحيحاً، وليست المسألة أكثر من أن يكون الرجل قد سلك طريقاً آخر.

بعد أن أنهوا الشاي الأخضر، وتناولوا فطائر طازجة محلاّة بالعسل، لم يقربها ابن برجان، تفرّقوا من جديد في أزقّة خالوها مختلفة، فيما أبقى الأمير سائقه في المقهى ينتظر، ويراقب.

لم يعد أيٌّ منهم بنتيجة. وهكذا أمضوا ثلاث ساعات يتفرّقون ويعودون.

في العاشرة والربع أتى صاحب المقهى الذي يعرفه رماح. سأله عن الساروتي، فأخبره أنّه لم يره منذ يومين.

تصبّبت حبّات عرق من جبين ابن برجان. فمنذ يومين يعني منذ رآه رماح هنا. خشي الشيخ أن يكون الرجل قد انتقل إلى مكان خارج المدينة، وربّما غادرها إلى وجهة أخرى.

- «هل من عادته أن يختفي هكذا.. أقصد ألا ترونه كلّ يوم»؟ سأل ابن برجان

- «نعم.. هو هكذا.. ولا أعتقد أنّه قد غادر المدينة في

السنوات الثلاث الأخيرة على الأقلّ». هدأ شيء من روع ابن برجان وصاحبيه.

أخذ صاحب المقهى يجمع الكؤوس الفارغة ثمّ قال: «إن اختفى فسيكون في أعلى الجبل» وأشار برأسه إلى المسجد الأثري المهجور في الأعلى.

نظروا جميعاً إلى حيث أشار، وعادوا ينظرون بعضهم إلى بعض.

كان على السائق أن يدفع ثمن بنيته الرياضية التي تعطيه منظر المصارعين. فقد كلّفه الأمير الصعود إلى الأعلى، والبحث هناك. ولم تكن ثمّة طريق ممهدة للسيارة، ما يقتضي صعوداً مرهقاً على الأقدام قد يستغرق أكثر من ساعة كاملة، وساعة أخرى في النزول. أي ساعتين. كما قال صاحب المقهى.

– «أعلمنا فقط إن رأيته في الأعلى.. لا تدخل المسجد». قال الأمير لسائقه.

– «سأمضي معه» قال ابن برجان وهبّ واقفاً.

أمسك الأمير بمعصمه:

– «الطريق صعبة يا ابن برجان. إن وجده هناك سنمضي معاً. لا عليك».

بقي ابن برجان متردّداً في العودة إلى مقعده أو المضي مع السائق. وأخذ يرقبه حتّى اختفى في أزقّة المدينة. بعد ربع ساعة ظهر من بعيد وهو يمضي صعوداً باتجاه المسجد.

اقترح الأمير أن يعودوا إلى الفندق، فقد أعياهم المسير في الأزقّة صعوداً ونزولاً، على أن يرجعوا بعد الظهيرة.

لم يتحرّك ابن برجان من مقعده، وأخبر الأمير أنّه سيبقى قليلاً على أن ينضمّ إليهم في ما بعد. لم يكن الشيخ يريد مغادرة الساحة. تعجب الأمير، لكنه ترك الرجل وما يريد. وقبل أن يمضي يصحبه رماح قال «سنلتقي هنا في الرابعة مساء».. وبعد خطوتين التفت إليه «هذا إذا لم يحمل السائق خبراً لنا»!

قبل الرابعة مساء، عاد الأمير ورماح إلى ساحة المدينة. ولم يكن ابن برجان في مكانه. فجلس الرجلان في المقهى ينتظران عودة الشيخ والسائق.

ظهر بدرو بعد دقائق: «لم أعثر على شيء. كان المسجد مهجوراً وكل ما حوله مهجور مثله حتى أعلى الجبل».

ومضى يقول: «لا أعتقد أنّ الرجل الذي تبحثون عنه قادر على الوصول إلى الأعلى». ثمّ أطلق زفرة تطايرت مع رذاذه «إنّها رحلة قاتلة»!

– «وأين ابن برجان؟ ألم تره»؟

– «لا.. فقد عدت لتوّي».

بقي الثلاثة ينتظرون الشيخ المغربي في المقهى،

اقتربت الساعة من الخامسة ولم يظهر.

ثمّ السادسة..

أرسل الأمير السائق يجوب بعض طرقات المدينة بحثاً عنه، فعاد خالي الوفاض.

ثمّ السابعة..

اعترى الأمير قلق واضح. وفي الساعات التي أمضاها ينتظر

ظهور ابن برجان كان قد أشعل نصف علبة سجائره. حتّى ردوده على الاتصالات التي وردته كانت مقتضبة، وكأنه لا يريدها.

- «لا بدّ أن نبحث عن الرجل».
- «ربّما عاد إلى الفندق». توقّع رماح.

اتصلوا بالفندق فلم يجدوه. تركوا رسالة لعامل الهاتف أن يتصل بهم حال عودة الشيخ المدعوّ ابن برجان.

- «كنّا نبحث عن واحد صرنا نبحث عن اثنين». قال الأمير وهو يضرب كفّاً بكفّ.

أمّا رماح فقد تساءل بخبث:

- «إن قادتنا رائحة الخبز إلى سلاّم.. فأيّ رائحة ستقودنا إلى ابن برجان»؟

تفرّقوا كلٌّ في جهة يبحث بطريقته.

كانوا يعلمون أنّهم لن يجدوا ابن برجان تائهاً في الطريق، لكنّهم أرادوا أن يفعلوا أيّ شيء يزيح عن كواهلهم إحساس القصور إن لم يبحثوا..

عادوا إلى المقهى بعد نصف ساعة.

فكّر رماح أنّ أفضل طريقة هي أن يسأل بعض مرتادي المقاهي المنتشرة في الساحة. ففعل على طريقته. يقف في منتصف المقهى ويسأل بأعلى صوته فيما يشبه الترانيم لافتاً الأنظار إليه. وعلى الرغم من انزعاج الأمير، بدا منظر رماح مسلّياً. وزاد على ذلك أن طلب من السائق أن يفعل مثله حين يمتلئ المكان بالسائحين الإسبان. إلاّ أنّ صوت السائق كان يختلف عن ترانيم رماح في أنّه بدا أقرب إلى صوت منشار صدئ.

لم تسفر محاولة الرجلين عن أي شيء، باستثناء فلاشات كاميرات سائحين اعتقدوا أنّ رماح جزء من فلكلور مغربي بهيئة عصرية!

لعن الأمير في سرّه هذا الغياب المزعج لابن برجان. وندم على تركه وحده في المقهى.

لم يبقَ مشروب مغربي لم يجرّبوه وهم ينتظرون ظهور المفقود، أو المفقودين، ويبحثون حتّى التاسعة مساء.

قام الأمير وقال في إعياء: «لنعد إلى الفندق. عندما يقرّر ابن برجان أن يظهر يعرف أين يجدنا». ومن باب الحيطة طلب من السائق أن ينتظر، في المقهى، حتّى منتصف الليل.

في الفندق، أزجى الأمير وقته في اتصالات لم تنقطع. فيما انشغل رماح في مراقبة ذبابة تعلو أخرى على نافذة البهو التي تطلّ على السفح. إنّها الإثارة القصوى في هذه المدينة التي ما أحبّها!

قبل أن تعلن الساعة الحادية عشرة مساء، دخل السائق إلى قاعة الفندق حيث الأمير ورماح يتحادثان على أريكة جلدية. كانت قسماته غريبة ومشوّشة. قال بصوت مضطرب:

- «وجدت ابن برجان أيّها الأمير»!
- «أين»؟
- «عند رأس الماء، أسفل الجبل.. لكنّه كان.. كان..»
- «كان ماذا..»؟
- «كان يبكي أيّها الأمير»!

* * *

- «بقيت جالساً في المكان الذي أمرتني أن أنتظر الشيخ فيه» قال بدرو وهو يسوق الرانج روفر باتجاه المدينة القديمة بصحبة أميره ورماح. «وبينما أنا أراقب كلّ حركة إذا بطفل أجعد الشعر يقترب منّي. .». . «طفل» فكّر الأمير صامتاً، وأصغى إلى سائقه. «قال الطفل إنّ الشيخ الذي تنشده عند رأس الماء. ظننته يقصد سلاّم. سار أمامي وارتقينا أزقّة صعدت بنا ثمّ هبطت. قرب الطريق المؤدّي إلى الجامع المهجور فوق الجبل، اختفى الطفل في العتم. فجأة سمعت صوت رجل يُجهش بالبكاء خلفي. التفتّ فإذا ابن برجان يجلس على الأرض. كان يستند إلى حائط نصف مهدوم، ويغطّي وجهه بيديه. ما عرفته إلاّ من ثيابه التي عكس بياضها ضوء مصباح غير بعيد. أخذته معي وهو على حاله تلك إلى أن بلغنا المقهى الذي في الساحة».

- «ولماذا لم تحضره معك»؟ سأل الأمير.

- «رفض. . وأصرّ على أن يبقى في المقهى. إنّه شيخ عنيد. ما كان يريد مغادرة المكان البتة. فعدت مسرعاً لأخبركم بالأمر وأحملكم إليه».

- «هل أصابه مكروه، أو به أذى»؟

- «أعتقد أنّه على ما يُرام». أجاب السائق وهو يدير مفتاح سيارته يطفئها قرب باب المدينة القديمة.

سار الثلاثة إلى حيث الساحة، أمام القصبة. ولمّا رأى الأمير ابن برجان هرول إليه مسرعاً. نهض ابن برجان كالثمل. بدا متأثراً وعيناه غائرتين.

عندما انضمّ رماح إليهما رأى ابن برجان وقد عاد هرماً كما التقاه في اليوم الأول. ظهر محنيّ، ووجه علته التجاعيد كأخاديد عسكرية، فيما تبدّت رؤوس شعر صغيرة على ذقنه كشواهد قبور بيضاء على أرض لا حياة فيها.

أخذ الأمير بيد ابن برجان المنكمش على نفسه، وكان يرتجف، فأعاده إلى مقعده. وبصعوبة نطق الشيخ: «لقد رأيته، لقد رأيته»!

ربّت الأمير بلطف ظهره، وطلب له ماء وطعاماً، فلم يذق الشيخ زاداً منذ البارحة.

شرب قليلاً من الماء بيد مرتعشة، وتركّزت عينا الأمير ورماح على شفتيه في انتظار ما تخبرانهما به. من خلفهما جلس بدرو لا يعرف ما يجري.

بصوت متهدّل كجلد رقبته تحدث ابن برجان. قال إنّه كان يسير في الطرقات يبحث عن سلاّم، ثمّ يعود ليرتاح في المقهى. في المرّة الأخيرة، أحسّ بشيء يقوده إلى رأس الماء، أسفل الجبل. فانطلق يسير إلى أن توقّف على حرف يُشرف على النبع.

«فجأة تقدم مني طفل أجعد الشعر، قال لي إنّ سلاّم هناك، واختفى».

سرت قشعريرة في جسم الأمير وهو يسمع بأمر الطفل ذي الشعر الأجعد للمرّة الثانية هذا المساء. أتُراه الطفل الذي كان يرى ظلاله من قبل؟

مضى ابن برجان يحكي ما حدث «نظرتُ فإذا برجل يستحمّ قرب النبع. كان واقفاً يرتدي سروالاً طويلاً أبيض اللون. لم أتبيّن ملامحه. اقتربت منه حتّى سمعت صوت صليل معدن. ما كدت أضع عينيّ في عينيه حتّى أدركت أنّه هو..»! وعاد يبكي.

حاول رماح أن يقاطع ابن برجان بسؤال، فأشار عليه الأمير أن «اصمت».

مضى ابن برجان في حديثه وقد اغرورقت عيناه بالدموع «لم يكن عملاقاً كما رأيته عندما كنت طفلاً. نعم.. لم يكن عملاقاً. كان يجب أن أعرف. الطفل يرى الأشياء على غير حقيقتها. تبدو له أكبر.. أكبر». بلع ريقه وتابع «اقتربت منه وهو ينظر إليّ النظرة ذاتها. سألته: هل أنت سلاّم؟.. كنت أعلم أنّه هو، لكنّي أردت أن أسمعه يقولها. رفض أن يجيبني. أعدت سؤالي وأنا أستعطفه الإجابة.

«قال: لست أنا. ثمّ سار وهو يضع ثيابه عليه، وقطرات ماء تتساقط من شعره وذقنه. رجوته أن يسمعني، ولو للحظة. عندما نظر إليّ مرّة أخرى، نسيت ما أريد أن أقوله. أدار ظهره منصرفاً، رجوته أن ينتظرني حتّى يهدأ روعي قليلاً. وقبل أن أسأله من جديد سألني هو: وما تريد من سلاّم؟ فقلت له أنت هو؟ عاد

يسألني وقد تحجّرت عيناه: ماذا تريد من سلاّم؟ تلعثمت، وبكل ما وهبني الله من قُدرة كرّرت مرّة أخرى: إنّه أنت.. نعم إنّه أنت. دنا مني قليلاً حتّى رأيته.. رأيت المفتاح. ثمّ قال: نعم.. أنا سلاّم. فما تريد منه؟ كدت أسقط». صمت الشيخ وأخذ يبكي من جديد. ناوله الأمير كأس مائه، فشرب قليلاً، ومضى في روايته «كنت أمامه أدمدم وأشكر الله أن استجاب دعائي برؤيته قبل الأجل».. وعادت إليه رعشته وتهدّج صوته أكثر «عرّفته باسمي، فعرفني أيّها الأمير.. لقد عرفني يا رماح، نعم لقد عرفني.. تذكّرني يوم رآني طفلاً في دكّان أبي..»!

- «وماذا بعد»؟ سأله الأمير.

- «بقيت صامتاً لا أعرف ما أقول. أمسكت بثيابه المبتلّة. وبكيت». رفع ابن برجان رأسه ينظر إلى السماء، فبدت عيناه لم تتوقفا عن البكاء منذ ساعتين، وجاهد في مواصلة حديثه «فجأة رأيته يبتسم. لم تكن تلك الابتسامة لتهدّئ من روعي بل كانت خطّاً فاصلاً بين طفولتي والكهولة». وقد صدق الرجل، فابن برجان الذي كان في الصباح، ليس هو الذي يتحدث الآن!

أنصت الأمير ورماح كطفلين إلى جدّ يروي قصّة خُرافية.

كانت العواطف التي عبّر عنها ابن برجان، مع كل كلمة قالها، من الصدق والتأثر أن كادت تجذب روّاد المقهي للجلوس قربه، والاستماع إلى ما يقول.

بعد شربة ماء ثالثة سال نصفها على ثيابه تابع ابن برجان:

- «أخيراً.. تملّكتني الشجاعة وتحدّثت إليه..».

- «عمَّ تحدثتما»؟

- «عنك أنت أيّها الأمير. . والحمراء».

- «وماذا قال»؟

- «ذهب ينظره إلى المسجد في أعلى الجبل. . . كان المساء قد حلّ. وما بقي من ضوء لا يكفي لترى أبعد من المسجد. . بقي ينظر إليه صامتاً ثمّ عاد ينظر إليّ ويسألني عنك ما تريد بالحمراء؟ فقلت مجد القصر وتاريخه. قال: أيّ مجنون ينشد لعنة كهذه؟ هل تصدّقني الآن أيّها الأمير. .؟ هل تصدّقني»؟ أومأ الأمير برأسه، وتابع ابن برجان «عندما نطق بكلمة لعنة، أحسست بأنّه يلعنني أنا أيّها الأمير. . لقد كان له رأي! كان الليل قد حلّ، وانتشرت العتمة في المكان. فما عدت أرى ملامحه. لكنّي كنت أرى ظلاله على أضواء المدينة».

صمت ابن برجان لحظة. . ثمّ رفع رأسه تجاه المسجد على قمّة الجبل: «بقيت أحدّثه، ثمّ وجدت نفسي أتحدّث وحيداً إذ كان قد اختفى. فهمتُ حزيناً باكياً إلى المكان الذي وجدني فيه بدرو». أغمض عينيه بقوة بانت معها خيوط الزمن على جفنيه، ولزم الصمت بشهيق متقطّع.

تبادل الأمير ورماح نظرات حائرة. كان من الصعب أن يقرأ أحدهما ما في نظرة الآخر. تهيّأ للأمير أنّ في القصّة أكثر ممّا روى ابن برجان، وأنّه يخفي شيئاً عنه!

- «قلت إنه كان له رأي، فما هو هذا الرأي؟ ألم تقل له إني سأدفع له ما يريد»؟

- «لقد كان له رأي» كرّر الشيخ ومسح دمعه بكُمّ ثوبه.

- «وماذا تقترح أيّها الشيخ المبجّل»؟

لم يجب ابن برجان، ولزم الصمت.

- «هل تعتقد أنّنا سنراه الليلة مرّة أخرى. . أو ربّما في الغد»؟ سأله الأمير ثانية، ولا جواب.

بعد صمته الطويل، والنادر، أبدى رماح ملاحظة ذكيّة. نظر إلى ابن برجان وسأله: «ماذا قال لك الطفل ذو الشعر الأجعد عندما بلغتم رأس الماء. قل لي تفاصيل ما حدث منذ أتاك في المقهى»؟

نظر ابن برجان إلى الرجلين بعينين متعبتين، وأعاد مقطع الحكاية مرّة أخرى «طلب منّي الطفل أن أتبعه إلى حيث يكون الساروتي الذي نبحث عنه. قادني إلى رأس الماء. وقبل أن يختفي أشار بإصبعه وقال هناك سلاّم. نظرت فإذا. .»

قاطع رماح ابن برجان وسأله: «قال لك هناك سلاّم. .»؟

نظر إليه ابن برجان وهو يزمّ شفتيه: «نعم».

- «هذا يعني أنّ هناك مَن يعرف في المدينة بأمر سلاّم سوانا». قال رماح وبريق المكتشفين يطلّ من عينيه.

وللحق، فقد كان ذلك اكتشافاً ذكياً. لم يعلّق ابن برجان، أمّا الأمير فقد بدا له أنّ القصّة الغامضة التي أحبّ أن يعيشها تستحيل كابوساً.

بقي صامتاً طوال الطريق من ساحة المدينة إلى الفندق الذي ينزلون فيه.

قبل أن يمضي كلٌّ إلى مخدعه، كان الصبر قد بلغ من الأمير مبلغه. فأخذ بيد الشيخ إلى كنبة طويلة في بهو الفندق، وأشار إلى رماح أن يدعهما وحدهما، فصعد الأخير إلى حُجرته حانقاً. وقبل أن يختفي في المصعد أكّد عليه الأمير «موعدنا في الفجر أمام باب الفندق»، وانصرف إلى رفيقه «ها قد أصبحنا وحدنا يا ابن برجان. . هل هناك ما تخفيه عني»؟

أثارت حماسة ابن برجان بالحديث إلى الأمير وحده بعض استغرابه. فهو يعلم أنّ رماح مطّلع على القصّة كلّها أكثر منه هو ربّما. مع ذلك استقبل هذه الحماسة من الشيخ بحماسة مماثلة، ومال إليه يسمع ما يقول.

قال ابن برجان إنّه لا يعرف ما إذا كان استنتاج رماح صحيحاً، وأنّ هناك من يعرف بأمر سلاّم في المدينة. «لكن ليست للرجل صفات الأسطورة. قد نراه مرّة أخرى في جلباب تقليدي، أو في ثياب حديثة، لكنّه فكرة واحدة من الداخل. من أجل هذا بحثنا عنه في كلّ مكان، في وقت ربّما كان هو يجلس إلى جوارنا دون أن نراه، بلا رائحة خبز، أو صليل معدن»!

لم يكن ما قاله ابن برجان ما ينتظره الأمير. وللحظة أحسّ أنّ القصّة كلّها خدعة سخيفة. إلاّ أنّ صوتاً في داخله أنبأه غير ذلك.

على الكنبة الطويلة أطبق ابن برجان يديه المرتعشتين بين ركبتيه، وقال عبارة زادت من حيرة الأمير منه:

- «ستعلم من سلاّم كلّ شيء».

- «سأراه إذاً. . متى»؟

- «قريباً أيّها الأمير. . ربّما في الغد، أو أبعد من ذلك. لست متيقّناً».

هل هذا سرّ ابن برجان إذاً. . الغد؟ تساءل الأمير في نفسه، وسأل الشيخ:

- «هل قال هو ذلك»؟

- «كلّ ما أعرفه أنّك ستراه. . لقد انتظرت كثيراً أيّها الأمير، وحان أن تعرف كلّ شيء».

- «وما يكون الكل شيء هذا»؟ سأل الأمير في برود.

- «ستعلم قريباً».

- «كيف كان شكله يا ابن برجان حتّى نستدلّ عليه في بحثنا»؟

- «إنّه رجل لا يشبه الأسطورة. . »!

أشعل الأمير سيجارة ونهض باتجاه المنظر المطلّ على المدينة. من خلفه جاءته عبارة غامضة من الشيخ:

- «إنّه يكره القصر أيّها الأمير»!

- «ولماذا يكره بناءً عظيماً كهذا!»؟

أرخى ابن برجان رأسه وتدثّر بصمت آخر.

أثقلت القصّة أفكار الأمير: الحمراء، سلاّم، الطفل ذو الشعر الأجعد، بكاء ابن برجان. «آه. . هل تستحقّ المسألة كلّ هذا العناء»؟ وجرف الشاب حنين إلى منزله في الرياض.

أغمض عينيه كمن يريد أن يرى في إغماضته من يقول له بأنّه

يحلم.. وفي تلك العتمة تخيّل الأمير سلاّم بوجه له ملامح الزمن، ومن فمه يصعد غبار قديم!

استمرّ الأمر بضع ثوان، قبل أن يفتح الأمير عينيه ليرى ابن برجان وقد بدا كمن تقلّص إلى نصف حجمه. أدرك أنّه لن يحصل الليلة من الكهل الجالس أمامه على أكثر ممّا قال. لكنّه بات متأكّداً أنّه إذا كان سلاّم، الذي لم يره بعد، يملك بعض الأجوبة، فإنّ ابن برجان يملكها كلّها. وسينتظر أن يخبره بها صباحاً.

أخذ الأمير بيد الشيخ، وصعدا معاً حتّى باب حُجرته. وقبل أن يختفي الشيخ وراء بابه نظر إلى الشابّ. حاول أن يقول شيئاً.. لم يستطع.. ولاحت في عينيه غابتا مطر.

«أراك في الفجر»، قال له الأمير ومضى إلى حجرته.

سيأتي الفجر.. ولن يراه..!

* * *

مع أنّ الشابّ بات يدرك أنّ لقاءه وسلاّم رهن بالحظ أكثر منه بالوقت، فقد آثر أن يبدأ بحثه مع الفجر. كانت في داخله رغبة ملحّة في الانتهاء من الأمر. فقد أتعبه التفكير والغموض اللامتناهي والانتظار في المقاهي لرجل قد لا يأتي.

تلك الليلة، تقلّبت في رأسه أسئلة كثيرة أكثر ممّا تقلّب هو في فراشه. كان أكثرها سؤاله لنفسه: «هل أنا أحلم»؟

في الفجر وقف الأمير أمام عامل الاستقبال يسأل عن رفيقيه، فيما كان بدرو قد أخذ مكانه وراء مقوده.

توقّع الأمير أن يكون ابن برجان قد مضى إلى المسجد لصلاة الفجر. لكنّ عامل الفندق أخبره أنّه لم ير الشيخ يغادر. اتصل برماح يستعجله النزول، وترك ابن برجان في سُباته، تقديراً لما ألمّ به البارحة.

ارتقى رماح مقعده الخلفي شبه نائم، ومضوا ثلاثتهم إلى المدينة القديمة. طلب الأمير من السائق أن يعود مرّة أخرى إلى الفندق ويبقى في البهو لا يغادره في انتظار ابن برجان.

مقابل القصبة، كانت صلاة الفجر قد انتهت في المسجد القريب، وأدركوا آخر المصلين وهو يغادر الساحة.

صعد الرجلان الزقاق ذاته بجوار المقهى حتّى أعلاه. بقيا واقفين لمدّة ربع ساعة. ثمّ مضى كلٌّ في اتجاه. كانا يبحثان عن سلاّم وهما بين شكّ ويقين بأنّهما لن يلتقيا الرجل يسير في أزقّة المدينة التي امتلأت برائحة خبز الصباح.

بعد نصف ساعة اجتمع الرجلان في مقهى الساحة. اتصل الأمير بالسائق يسأله عن ابن برجان. قال إنّه لا يزال ينتظره في البهو!

في جزء من ثانية، ومض داخل الأمير إحساسٌ سريع وقويّ، كبرق يوم ماطر، بأنّه لن يرى ابن برجان بعد اليوم!

حاول أن يكذّب إحساسه وتجاهل الأمر. لكنّه كان مخطئاً. فعندما يومض إحساس مماثل في داخلنا، لأمر نهتمّ به، سيكون أكثر صدقاً من حقيقة نراها. والحقيقة هنا أن اجتماع الأمير بابن برجان في بهو الفندق البارحة، كان لقاءهما الأخير.

بدأت بعض الحركة تدبّ في ساحة المدينة مع خيوط الصباح الأولى. لم يتصل السائق بعد. ولم يعلّق رماح على الأمر، مكتفياً بسؤال لم ينتظر جوابه «لماذا تأخر الشيخ»؟

التقط الأمير هاتفه واتصل بالسائق ثانية. أخبره بأنّه لا يزال ينتظر في البهو. تجاهل الأمير إحساسه مرّة أخرى، وخشِيَ أن تكون علّة قد لحقت بالشيخ المغربي، فعاد إلى الفندق مسرعاً.

توجّه إلى عامل الاستقبال. سأله إن كان متأكداً أنّ ابن برجان

لم يغادر حجرته. أكّد له العامل أنّه لم يره، ما يعني أنّه لا يزال نائماً.

اتصلوا بهاتف حجرته فما ردّ أحد.

اقترح رماح أن يصعدوا ويفتحوا الباب من الخارج. في تلك اللحظة تحديداً، وقبل أن يفتحوا الباب، تأكّد للأمير أنّ الرجل ليس في حجرته. لقد اختفى ابن برجان!

للفندق مدخل واحد فقط. والنوافذ ثابتة لا تُفتح. والسائق وعامل الفندق يقفان منذ الفجر على الباب. كيف غادر الرجل إذاً؟ «هل طار»؟ صرخ الأمير في رماح فلاذ بصمته. مضى الأمير إلى الكنبة التي جلس عليها البارحة مع ابن برجان. وقف يتأمّلها كما لو كان الرجل لا يزال جالساً مكانه منذ الأمس. وتخيّل نفسه يسأله «هل هي طقوس اللقاء بسلاّم»؟

قطع رماح تفكير أميره بتعليق لا محلّ له «إنّه رجل مريب، عرفت ذلك منذ اللحظة الأولى».

والحقيقة أنّ الأمر ليس كذلك. فليس لاختفاء الرجل علاقة بطقوس البحث عن سلاّم، ولا هو بالمريب ليتسلّل من الفندق هارباً.

عندما أوصل الأمير ابن برجان إلى حجرته ليلة البارحة، لم يقوَ الرجل على البقاء في الفندق فيما سلاّم أسفل المدينة في مكان ما. ورغم ما به من توتّر وإرهاق، فقد غادر حجرته بعد دقائق من دخوله إليها. لم يره أحد من العاملين لأنّهم كانوا قد انشغلوا باستقبال وفد سياحي ياباني يزور المدينة.

أخذت أسئلة كثيرة تقرقع في رأس الأمير كجرس كنيسة الحمراء.

«ما الذي كان يريد أن يقوله ابن برجان قبل أن يختفي؟

ولماذا قال إنّ سلاّم يكره الحمراء»؟ ومن سؤال إلى سؤال ومن شكّ إلى شكّ، حتّى سأل نفسه للمرّة الألف «هل هناك سلاّم بالفعل»؟

فكّر الأمير أن يدع كلّ شيء ويمضي عائداً إلى ماربيا. كانت هذه الفكرة تراوده للمرّة الثانية. لكنّ شيئاً كان يدفعه إلى البقاء. وقد ثبت صدق إحساسه مرّة أخرى.

بعد أن هدأت أفكاره كغبار عاصفة استكانت، توجّه بصحبة رماح إلى مطعم الفندق. تناولوا إفطاراً خفيفاً وأخذوا يفكّرون في الخطوة القادمة. لم تكن البدائل كثيرة، وسيطر شيء من التوتّر.

مضى كلٌّ إلى غرفته يرتاح قليلاً. . ولغرابة الأمر، شعر الأمير ببهجة تسلّلت إلى نفسه وهو يدخل باب حجرته. أحسّ كما لو أنّ ابن برجان يمسك بيده، ويقوده إلى سريره كي ينام قليلاً، ويطمئنه أنّ الأمور ستكون على ما يُرام!

نام الأمير ساعتين بعمق، خالهما يوماً كاملاً. لبس ثيابه ونزل. رآه رماح في البهو مبتهجاً وأنيقاً، فحيّاه مستغرباً ومضيا على عجل إلى المدينة القديمة!

كانت الساعة تقترب من الواحدة بعد الظهر. وحركة المدينة في هذا الوقت الساخن تصبح بطيئة الايقاع، ولربّما كانت أفضل أوقات البحث، أو لعلّها الأسوأ.

انتظر السائق في ساحة المدينة، في المقهى ذاته، ومضى الأمير ورفيقه يجوبان الأزقّة. لم يقترح أن يسير كلٌّ منهما في طريق. فما عادت تروقه الفكرة، بل بدت عقيمة وسخيفة.

ركّز الأمير في بحثه على مواصفات تدلّه على سلاّم، كما تحدّث عنها ابن برجان. مع ذلك بات شبه واثق أنّ الصدفة هي التي ستقوده إلى الرجل، الصدفة وحدها، لا الاجتهاد في البحث.

سار الأمير ورماح حتّى بلغا رأس الماء، إلى المكان الذي قال ابن برجان إنّه رأى سلاّم فيه البارحة. كان منظر الجبل من هناك، والطريق المؤدّي إلى المسجد في الأعلى يولّدان إحساساً بالرهبة. . لعلّه ما استشعره ابن برجان عندما قاده الطفل ذو الشعر الأجعد إلى حيث كان سلاّم يستحمّ!

كان النبع يفيض بضحكات أطفال يلعبون أكثر ممّا يفيض بالماء. عبس رماح وهو يجد أميره يسير باتجاه النبع. فتبعه بصمت. اقتربا من الأطفال. رأى رماح أميره يتفرّس في الوجوه القريبة والبعيدة. حسبه يبحث عن سلاّم. لكنّه كان يبحث عن طفل ذي شعر أجعد!

لم يطل بقاؤهما كثيراً عند النبع، وقفلا عائدين إلى ساحة المدينة.

وصلا إلى المقهى حيث ينتظرهما السائق. كان الأمير يفكر، وينظر حواليه كمن يبحث عن وجهٍ ما.

ترك رماح أميره وما يشغل تفكيره، وانصرف يتحدث مع السائق قليلاً. وبينما هما يتحدّثان، إذا بعينيه تقعان على السائح

الإسباني العجوز، الذي التقياه منذ بضعة أيام، يدخل المقهى «آه.. ما زلت هنا»؟ وأخذ يحادثه.

بعد بعض الوقت، شعر الرجال بالجوع، فطلبوا غداءهم. لم يتناول الأمير شيئاً. وأكثر ما كان يقلقه ليس العثور على سلاّم فقط، بل ما قاله ابن برجان عنه!

- «هل تعتقد أنّ الرجل سيكون قادراً على إعادة بناء الحمراء»؟ سأل الأمير رماح، وهو مستيقن أنّ رفيقه الضخم آخر من يملك جواباً.

- «هل تقصد سلاّم أيّها الأمير؟ إن كان هناك من سلاّم، فهو أخبل ولا شكّ. وقد لا يستطيع أن يفعل ما تريد. لكن قد يعيد المال إليه بعض شبابه وعقله فيبني لك الحمراء»!

شتّان بين ما يفكر فيه الأمير، وما يراه رماح.

- «لم تعد المسألة بناء قصر أو عدمه. ألم تدرك بعد يا رماح..»؟ قال الأمير في حدّة.

- «أدرك ماذا..»؟

عاد الأمير يتحدّث بهدوء كمن يتغزّل بامرأة جميلة:

- «هذا الغموض الذي نعيشه.. هذه الوجوه من حولنا.. الأسماء التي تحيط بنا.. والأصوات التي في داخلنا، كلّ ذلك من أجل الحمراء. لم يعد الأمر حجارة قديمة تنام على بعضها، ألا تدرك ذلك»؟ وأضاف «أعلم أنّي قادر على بناء قصر يشبه الحمراء دون الحاجة إلى سلاّم وابن برجان. لكنّي لن أفعل، ليس خوفاً من لعنة في القصر، بل من أن يأتي القصر خالياً من الغموض

الذي يجعله جميلاً كما هو الآن.. هل فهمت»؟

- «فهمت أيّها الأمير.. نعم فهمت». قال رماح وهزّ رأسه دون أن يفهم إلى أيّ عمق أصبح القصر ساكناً قلبَ أميره. ثمّ أضاف معقّباً «لكن أين سنجد ابن برجان لكي يجد لنا سلاّم»؟

- «قال ابن برجان إنّنا سنراه..».

- «إن كان قال إنّنا سنراه فهل قال متى سنراه..؟ هل يريدنا صاحب الاسم العفاريتي أن ننتظر هنا عاماً كاملاً ريثما نعثر على العفريت الآخر؟ ثمّ ماذا لو ترك هذا السلاّم المدينة دون أن ندري»؟

- «أمر محتمل، لكنّي أحسّه قريباً من هنا.. وإن لم نعثر نحن عليه، فلعلّه... يعثر..» وتقطعت كلمات الأمير «.. هو.. علينا»، وجمدت عيناه باتجاه القصبة. كان ينظر إلى رجل قادم باتجاههم..

له عينان بلون الصدأ.. وقامة صلبة..

ومن عُنقه تدلّى مفتاح قديم!

كانت رائحة الخبز تملأ المكان!

* * *

«إنه يشبه حُلماً..»! قال الأمير.

وصرخ رماح قائلاً «إنّه هو.. إنّه الذي رأيته في الفجر»!

كان منظر الرجل غريباً: شعرٌ فضيّ مشدود إلى الوراء بربطة مطّاطية. قميص نظيف مفتوح على الصدر، بألوان زاهية مشجّرة، وبنطلون جينز. نعم، بنطلون جينز وحذاء رياضي. ما كان يشبه سلاّم الذي ترسمه المخيّلة.. كان أقرب إلى سائح أو فنان هيبي!

إنّه كما قال ابن برجان.. «رجل لا يشبه الأسطورة..»!

- «السلام عليكم».

- «وعليكم السلام» ردّ الأمير وهو ينهض من مقعده ببطء وقد عقدت المفاجأة حواسّه، وفغر رماح فاه!

لم يمدّ الرجل يده مصافحاً، وكذلك فعل الأمير.

في تلعثم حاول إخفاءه سأل الأمير:

- «أنت سلاّم..»؟

- «أنا هو»!

كان المفتاح الطويل يتدلّى من عُنق الرجل. فأحس الأمير بشعر جسده يقف، وبدنه يقشعرّ..

- «ما تخيّلتك هكذا». قال وهو يشير إلى ربطة شعر الرجل وجينزه.

- «نحن أسرى خيالاتنا».

- «الخيال هو ما ساقني إليك»!

- «الحقيقة هي التي ساقتك لا الخيال». وسأل في صوت جافّ «تريد أن تبني الحمراء، أليس كذلك»؟

ما كان الأمير مستعدّاً لسؤال كهذا من اللحظة الأولى. فلم يملك سوى أن قال:

- «نعم.. وأريدك أن تساعدني».

حاول أن يركّز نظره على عينَي الرجل، فأحسّ بهما تثقبان رأسه. صدق ابن برجان «فله عينان كحربة مقاتل»!

جلس سلاّم يواجه الأمير ومن ورائه أسوار القصبة. بدا منظرهما متشابهاً: كلاهما قديم، كلاهما حجر.

جاهد الأمير كي يكون على طبيعته.

ربّما كان القلق والخوف يتّحدان هنا..

نعم.. فإذا ما عجز الأمير عن استخلاص ما يفيد من ابن برجان، الذي عرفه وعاش معه، فما تُراه فاعلاً مع الرجل الذي أمامه بقامة التاريخ؟

أدرك الأمير أن لا مجال لصمت وتفكير طويل في وقت كهذا. وقد كان مصيباً. إذ لن يلبث سلاّم أن يدير ظهره ويمضي.

- «ماذا قال لك ابن برجان»؟ سأل سلاّم.

- «قال إنّك وحدك القادر على بناء الحمراء».

- «وماذا أيضاً»؟

- «وإنّك قد رفضت.. لكنّي أطمع في أن تساعدني مقابل مبلغ تحدّده أنت».

- «ولماذا تريدني أن أساعدك»؟

- «لستُ أريد أن أجمع حجارة لا قيمة لها. أريد قصراً فيه أسرار الحمراء. فيه تفاصيله التي تراها ولا تراها». صمت لحظة وأضاف: «بلا لعنات»!

- «أنت مؤمن أنّ في القصر لعنة إذاً»؟

- «أردّد ما سمعت.. وقد أدركت أنّك القادر على أن تجعل من الحمراء قصراً حقيقياً إن بنيت لي مثله في الرياض». ومضى الأمير في حديثه وقد عادت إليه بعض ثقته «فقط، حدد ثمن ما تريد».

- «أتقصد مالاً»؟

- «.. والكثير إن شئت».

- «هه.. هه..»! قال الرجل في تهكم «أتعتقد أنّ المال يشتري التاريخ»؟

- «المال لا يشتري التاريخ أيها الشيخ، المال يصنعه»!

- «التاريخ فضلات إنسان..».

- «والحمراء..»؟

- «ليس هو القصر الذي تراه».. قال الرجل ولانت بعض قسماته «لن تحصل على قصر مثله أيّها الشابّ ولو أنفقت كلّ مالك. لن أساعدك. حتّى لو أردت أنا ذلك، فلن أستطيع»!

تداخلت حماسة الأمير مع دهشة علت وجهه:

- «وهل هناك من يمنعك..»؟

قاطعه سلاّم في صلافة: «لا.. لا. أنت لا تعرف شيئاً أيّها الشابّ». صمت الرجل لحظة ثمّ أضاف وهو يقطّب حاجبيه: «الحمراء ليس قصراً.. ليس حجراً.. كيف لك أن تفهم»؟

- «اسمع أيها الشيخ» قال الأمير في توتّر «أضجرتني ألغاز ابن برجان، ولست هنا لسماع المزيد، فقط قل لي كم تريد أهبك إيّاه ولنشرع في عملنا منذ هذه اللحظة»!

- «هل تعلم أنّ ابن برجان قد اختفى»؟ قال رماح في مداخلة ساذجة وهو يسمع اسم الرجل.

نظر إليه الكهل فارتعد الضخم قليلاً.. ومضى معقّباً:

- «لقد أدرك ابن برجان الحقيقة»!

- «أيّ حقيقة»؟ سأل الأمير.

- «الحمراء..»!

- «وهل هناك حقيقة يجهلها الناس عن الحمراء»؟

تحوّلت قبضة سلاّم إلى كفّ مبسوطة وأصابع تلعب في الهواء «إنّها الملحمة التي يخفيها القصر بين حيطانه.. هل تفهم أيها الشابّ..»؟

- «ملحمة أم لعنة»؟

- «كلاهما». وبصوت يمتلئ قوة سأل سلاّم:

- «ما اسمك أيها الشابّ»؟

- «عبد الرحمن».

- «وأنا رماح»..

اقترب الكهل من وجه الأمير:

- «آه.. وأيّ عبد رحمن تريد أن تكون للأندلس؟ هه..»؟

كان هناك عبد الرحمن الداخل، ثمّ الناصر، فأيّ عبد الرحمن تريد أن تكون»؟

لم يفكّر الأمير في المسألة من قبل.. ولم تخطر على باله فكرة الأسماء المتكرّرة تلك. لكنّ صدره انتشى بذاك التطابق الذي بدا كقدر إلهيّ!

ولإثبات وجوده، لا أكثر، تصدّى رماح للسؤال:

- «وفيمَ يقلّ الأمير عنهما»؟

نظر إليه سلاّم في ازدراء:

- «وهل تراهما أهلاً كي يقتدي أحد بهما»؟
- «ماذا تقصد.. لقد كانا أميرين أندلسيّين عظيمَين»..
- «أوَترى ذلك.. هه»؟!

ثم التفت إلى الأمير «أوَترى ذلك أنت أيّها الشاب»؟

تصنّع الأمير نبرة حازمة وقال متجاهلاً سؤال سلاّم:

- «هل ستساعدني أم لا»؟
- «لا..». قالها سلاّم في إصرار، وهمّ بالنهوض.

حاول الأمير أن يمدّ يده تجاه الرجل يستوقفه، لكنّه تردّد.

نظر الأخير إلى يد الشابّ تبتعد عنه:

- «قد عرفت جوابي قبل أن تراني»؟
- «نعم.. أخبرني ابن برجان.. لكنّني أريد أن أسمع بنفسي».
- «.. ها قد سمعت»!
- «نعم.. وقد أدركت كم كنتُ مخطئاً. كان يجب أن أبني القصر دون العودة إليك، ودون أن أتبع ابن برجان كالثور»!

- «إن استطعت أن تبني القصر وحدك فافعل».

سرت قشعريرة في جسد الأمير أدركها سلاّم، فقال بصوت عميق هادئ:

- «لن أساعدك رأفة بك أيّها الشابّ»!
- «مِن ماذا..»؟

أحسّ الأمير برهبة الرجل، وسادت حالة صمت.

- «هل تكره القصر»؟ سأل الأمير «هكذا قال لي ابن برجان، إنّك تكره القصر»؟

أشاح سلاّم بوجهه إلى البعيد، وظهر تأثّر على ملامحه لا يتناسب وصدأ عينيه.

اغتنمها الأمير فرصة فمضى يوجّه أسئلته:

- «لماذا لا تريد أن تساعدني؟ لماذا تكره القصر»؟

أتت تنهيدة من الشيخ، وما زاد أن قال:

- «.. أنا لست أكره القصر»!
- «إذاً لماذا لا تريد أن تساعد من يريد أن يكرّر عظمته»؟
- «لأنّي لا أريد أن أكرّر اللعنة».
- «أيّ لعنة..»؟
- «القصر.. الحمراء.. كلّه لعنة منذ اليوم الأول.. كيف لك أن تفهم أيّها الشابّ»؟
- «قل لي أنت كيف»؟

مرة أخرى اقترب وجه سلاّم من الأمير وقال له في صوت منخفض:

- «لماذا»؟

- «لماذا ماذا»؟

- «لماذا تريد بناء الحمراء.. لماذا ليس أيّ قصر آخر»؟

- «لأنّ لا مثيل لجماله في العالم كلّه».

- «هراء.. هناك قصور أجمل منه، فلماذا الحمراء»؟

- «لنقل إنّي مولع بما سكن الحمراء من تاريخ».

- «هذا التاريخ، هذا السحر الذي تتحدّث عنه أيّها الشاب هو تحديداً لعنة القصر»! وكرّر الشيخ كمن يخطب في حشد «لعنته في سحره الذي تطلبه»!

- «حسن.. سأكشف لك أمراً» قال الأمير كمن يلعب بورقته الأخيرة، واقترب برأسه من سلاّم «قلت إنّك لا تكره القصر، أنت تحبّه إذاً. مثلي أنا، بل ربّما أحبّه أكثر منك. وإن كنت تريد أن تعرف السرّ وراء رغبتي في الحمراء دون غيره، قلتُ لأنّه رمز مجدنا. جزء من ذاكرتنا.. هو أندلسنا الذي ضاع، فما تبقّى منه غير هذا القصر».

نهض سلاّم. نظر بعينين نصف مغمضتين إلى الأمير، وقال في هدوء تام:

- «من أجل هذا السبب تحديداً أيّها الشابّ لن أساعدك في بناء الحمراء»!

.. ومضى باتجاه الساحة.

* * *

أحسّ الأمير بيأس أمام الرجل.

تراءت له، في تلك اللحظة، سباع الحمراء تكشّر عن أنيابها، وأحسّ بنفسه مهزوماً أمام نفسه.. فقد اعتقد أنّ سلاّم سيقف مسانداً له عندما يخبره أنّ غايته من بناء القصر تخليد مجد زال، وتاريخ قد يعود يوماً. مع أنّ الأمير لم يكن صادقاً ودقيقاً في ما قال، صُدِم برد سلاّم «من أجل هذا السبب تحديداً لن أساعدك في بناء الحمراء»!

فاضت حيرة الأمير وانسكبت قطرات على الأرض. وقبل أن يختفي سلاّم عن ناظريه، لحق به. كان يعلم يقيناً أنّه إن اختفى الآن، فلن يراه مرّة أخرى.

فيما سلاّم ماض في طريقه، جاءه صوت الأمير من ورائه محتدّاً:

- «لماذا قلت ذلك..؟ أجبني أيّها الكهل.. لماذا»؟

توقّف سلاّم بعد أن أحسّ بالأقدام تتبعه. التفت وراءه ووقف وجهاً لوجه أمام الأمير. بدت خلفهما بوّابة القصبة الخشبية تفصل بين الرجلين كزمنين لا يلتقيان. وتراءى لرماح الذي بقي في مقعده

أنّ الأندلس كلّها تكمن في هذه الصورة. وحتى يكون هو جزءاً منها، وجد نفسه يندفع للوقوف بجوار أميره.

- «لماذا قلت ذلك»؟ كرّر الأمير سؤاله «لماذا ترفض بناء الحمراء الذي يرمز إلى تاريخنا العظيم؟ اعتقدت أنّ في هذا سبباً كافياً لدفعك إلى مساعدتي في ما أردت».

أطلق سلاّم زفرة.. وأمسك بالمفتاح الذي يتدلّى من عنقه، ولمع بريق دمع في عينيه:

- «لقد أصبح القصر حبلاً يخنقني».

شرد بنظره إلى الأفق ومضى يقول «الحمراء ليس قصراً نفتخر به. إنّه وصمة عار»!

- «وصمة عار..»؟! علّق الأمير في استغراب.

- «نعم.. قلت إنّك تريد الحمراء بكلّ ما له من تفاصيل، أليس كذلك»؟

- «نعم..»!

تقدّم سلاّم من الأمير قليلاً وقال:

- «لقد زرت الحمراء أيّها الشاب. أما زلت تذكر بعض تفاصيل القصر»؟

- «بل كلّها»!

- «وهل تذكر القلعة الجنوبية من الحمراء.. القلعة العسكرية. هل تذكرها»؟ ورسم في الهواء شكلاً مشابهاً، وأضاف «على رأس هذه القصبة جرس.. هل رأيته»؟

- «نعم أذكره.. إنّه يشبه جرس الكنيسة».

- «إن أردت أن تبني الحمراء بتفاصيله التي هو عليها الآن، فهل ستبني الجرس أيضاً.. جرس الكنيسة»؟

احتار الأمير في ما يجيب، فما فكّر في الأمر من قبل.

ترقّب سلاّم للحظة ردّاً من الأمير، ثمّ تابع حديثه «عندما بُني القصر، لم يكن الاسلام قويّاً في الأندلس. ومن أجل ذلك تمّ بناؤه، كي يعكس قوّة زائفة للإسلام الذي كان على وشك السقوط. الجرس الذي يعلو القصر الآن له قيمة أكبر من حجمه الصغير ومن قرقعة صوته. فقصر الحمراء الذي قُصد به أن يرمز إلى إسلام قويّ، وضع على رأسه جرس كنيسة ليرمز إلى انتصار المسيحية على هذا الإسلام القويّ»!

بقي الأمير واجماً يستمع.. فيما تابع سلاّم حديثه:

- «العلاقة بين القصر والجرس لا تزال قائمة على المبدأ ذاته حتّى اليوم. إنّها تريد أن تقول لنا إنّ الصدام بين المسيحية والإسلام الذي كان.. لا يزال قائماً، وإنّ الجرس ينتصر في النهاية. أريد للحمراء أن يكون رمز إسلام قويّ. ثمّ أتى الجرس فوق الحمراء، ليرمز إلى انتصار المسيحية على هذا الإسلام القوي. هل فهمت أيّها الشاب اللعنة التي أقصدها؟ إنّها هنا، إنّها في تاريخ القصر. في كل حجر منه. المعركة لا تزال قائمة بين دينين، وهذا القصر يرمز إليها في استمرارية ساخرة. المعركة لم تنته بعد. الحمراء هناك جندي مسلم. والجرس جندي مسيحي. كلاهما ملتصق بالآخر، ويصطدم به في اللحظة ذاتها. هل فهمت أيّها الشاب عن أي لعنة أتحدث»؟

جمد الأمير مذهولاً من حديث سلاّم. كان يحاول استيعاب كلّ كلمة يقولها. وبعد صمت سأله:

- «هل تريد أن تهدم الحمراء إذاً لتنتهي هذا الصراع»؟
- «انهدمه لا.. لكن لا تكرّر مثله»!
- «لماذا تتحدّث عن هذا الصراع كما لو كنّا نحن من بدأه لا هم..»؟

أجاب سلاّم وهو ينظر إلى انعكاس أضواء بعيدة على المسجد فوق التل:

- «لأنّنا كذلك بالفعل»!
- «أتقول إنّنا نحن المسلمين من بدأ الصراع»؟
- «نعم..»!
- «الصراع بين الأديان أقدم من عُمر الأندلس أيّها الشيخ».
- «صدقت أيّها الشابّ.. فعمر الصراع أقدم. لكنّه في الأندلس كان النموذج الأسوأ لهذا الصراع. نحن باحتلال الأندلس لم نوقظ مارد المسيحية لنقاتله في إسبانيا فقط، بل في أوروبا كلّها، حتّى الحروب الصليبية، ما كان لها أن تكون لولا الأندلس»!
- «عفوك أيّها الشيخ..» قال الأمير وقد علته ملامح استنكار وغضب «أتقول احتلالنا للأندلس..؟ وهل كنا غير فاتحين»؟
- «فاتحون..»؟ تساءل سلاّم في سخرية.
- «نعم.. فاتحون. فلِمَ السخرية»؟!

«لو كنّا كما تقول لنشرنا إسلاماً يبقى حتّى اليوم في الأندلس،

لا أن نُطرد منها مثل كلاب ضالّة..» وأخذ يقلّب ناظريه بين رماح وأميره «عندما دخلنا الأندلس، ادّعينا أنّنا ننشر ديناً سماوياً. ادّعينا أنّنا مبشّرون بالدين العظيم. لكنّنا لم نفعل شيئاً من ذلك». وارتفع صوته في حدّة «تسع مئة عام قضيناها هناك ولم نفعل شيئاً»؟

بادل الأمير سلاّم تعابيره الحادّة، فيما بدا رماح كما لو أن قبضة ملاكم أطارت أنفه.

لم يأبه سلاّم لتعابير الرجلين وانطلق كنهر من وراء سدّ تهدّم «تسع مئة عام.. ثمّ ماذا؟ طُردنا. أتعرف لماذا طُردنا أيّها الشابّ؟ لأنّنا باسم الله قتلنا الرجل وسبينا المرأة. لم ننشر ما جئنا من أجله. ولأنّنا فقدنا المبرّر الأخلاقي لوجودنا هناك، فقد تحوّلنا من فاتحين إلى محتلّين. فكيف نبكي اليوم على أرض عادت لأصحابها»؟

- «أنت تغالط أيّها الكهل.. فقد نشرنا المعرفة ودين الحقّ»!
- «أيّ معرفة تلك التي نشرناها وعن أيّ دين تتحدّث؟ قل لي كم عدد من أسلم من الإسبان طوال القرون التسعة التي قضيناها هناك؟ قل لي كم..»؟ صمت سلاّم في انتظار جواب الأمير الذي بقي بدوره صامتاً، ينظر إلى رماح تارة، وسلاّم تارة أخرى.
- «اعلمْ أنّ من تنصّر من المسلمين أكثر من الذين أسلموا من النصارى»!
- «تنصّروا لأنّهم أجبروا على ذلك، أمّا نحن فلم نُجبِر أحداً على الإسلام»؟
- «لم نجبر أحداً على الإسلام لأنّنا لم ندخل الأندلس بهدف

الإسلام، بل لنحتلّها. ما عملناه في الأندلس كان احتلالاً عربياً بربرياً فرضته الصدفة لا نيّة الفتح»!

هدأت نبرة سلاّم قليلاً وقال: «الحمراء أيّها الشابّ كان رمز احتلال لا فتح. ورمز صراع لا سلام».

كانت قسمات الأمير ورماح قد تيبّست كحيطان القصبة خلفهما. كانا مذهولين لما يسمعانه. «محتلّون.. نحن محتلّون للأندلس»؟! علّق رماح وهو يشير إلى صدره. صادق الأمير على استنكار رفيقه بصوت متضخّم.

- «وما دليلك على كلّ ما تقول»؟

- «وما دليلك أنت على عكس ما أقول»؟ واستطرد الشيخ «هل فكرت يوماً لِمَ طُرد الإسلام من الأندلس، ولم يُطرد من سهول آسيا وقصور فارس والأبواب العالية في تركيا؟ ربّما في مكان آخر من العالم بقي العرب، وبقي الإسلام، أو بقي الإسلام وطُرد العرب. لكن أن يُطرد الإسلام والعرب معاً فدعني أقول لك إنّه لم يحدث ذلك سوى في الأندلس. فهل فكرت يوماً لماذا؟ للسبب ذاته أيّها الأمير.. إنّه الخيط الدقيق بين الفتح والاحتلال، عندما قطعناه»!

كانت شمس المساء تفرش ألواناً أرجوانية انعكست على عيني سلاّم فبدت كعيني هرّ يافع.

نظر الأمير إلى رفيقه يطلب ردّاً على هذا الرأي المجنون، كما رآه، غير أنّ سلاّم انطلق من جديد كقائد يرفض أن تصمت مدافعه:

- «الحمراء.. هو تاريخ مُخزٍ، ليس أكثر من رمز لا أخلاق فيه، لملايين قُتلوا باسم الإسلام. تاريخنا الأندلسي ليس أكثر من ملحمة عار.. هل تريد أن تجسّد هذا العار مرّة أخرى أيّها الشابّ؟ هل تريد أن تزيل الجرس من فوق الحمراء.. أم يبقى الجرس؟ أيّها الشابّ..» وأضاف سلاّم في نبرة هدأت فجأة «إذا كان التاريخ قد انتهى، وما صار قد صار، فأنت تريد، ببنائك الحمراء، أن تمجّد صراعاً لا أخلاق فيه».

- «أنا.. أمجّد صراعاً..»؟

- «ألا تودّ ذلك.. ألا تودّ لو عادت الأندلس»؟

- «نعم.. لكن ليس بالقتال»!

- «أنت لا تريد القتال، آخرون يريدونه».

- «وما علاقتي بهم»؟

- «ليس أنت.. بل القصر، الحمراء والجرس».

- «لستُ مؤمناً بما تقول». قال الأمير والتفت إلى رماح مشيراً بيده إلى حيث يقف سلاّم «ما هذا المجنون»؟ فاكتفى رماح بهمهمات تشبه مضخّة ماء معطوبة!

أدار الشيخ ظهره لينصرف، فأتاه صوت الأمير من ورائه:

- «القصر الذي بنيته أنت، ووضعت فيه كلّ أحقادك، لا تعرف عنه شيئاً.. نعم لا تعرف. إنّه ليس لعنة. إنّه تجسيد لتاريخ عظيم. هل تعلم ما يقولون عن الحمراء أيّها الكهل؟ إنّه الرمز الحقيقي للتسامح بين الأديان كلّها».

- «إنّهم لا يعرفون شيئاً.. إنّهم يكذبون»! أجاب رماح دون أن يلتفت

- «ومن يكونون هم»؟

- «إنّه نحن وهم. .».

- «وأنت وحدك الذي لا يكذب ويعرف، أليس كذلك»؟

أدار رماح وجهه:

- «هم أيضاً يسيرون في الطريق ذاتها»!

- «وهل أنت معهم أم معنا»؟

- «هل رأيت ما أقصده أيّها الأمير. .؟ لقد نطقت أنت للتوّ بما كنت أقوله لك. . إنّه الصراع . . أنت معنا أم معهم؟ أنت قلتها». وأضاف دون أن يبالي بضجر أصاب الأمير وصاحبه «كان ينبغي أن لا نكون هناك. نحن نجرّ العالم إلى صدام معنا». وضغط بيديه على صُدغه «لا أريد أن يستمرّ هذا الصدام. . لا أريد».

- «وما علاقة ذلك بالحمراء التي أريدها أنا. إنّها حمراء جديدة لا دم فيها ولا صُراخ»؟

- «أنت كالآخرين. . تريد للصدام أن يستمر. قتلٌ يتجدّد باسم الله والدين. صراع يشبه ما تقوله تلك الحجارة على التلّ».

- «هل تعتقد أنّ رغبتي في بناء الحمراء تماثل القتل والتفجير»؟

- «الحمراء بُنيت باسم الدين، وقتلُ اليوم هو أيضاً باسم الدين».

- «وهل أنت ضدّ أن يسعى المسلمون إلى نشر دينهم»؟

- «إن كنّا أخفقنا في نشر ديننا في بلد عشنا فيه تسعة قرون

من المحبة والتسامح كما تقول، فهل ننجح اليوم بالقتل والعنف»؟

- «هم أيضاً يحاربوننا باسم الدين»؟

- «هم أيضاً مخطئون. لكن هل نعالج خطأً بخطأ. لقد أخطأنا في البدء، وليس من الفضيلة أن نستمرّ في الخطأ أو ننكره».

اقترب سلاّم من الأمير حتّى تلاقت أنفاسهما، ثمّ وضع يده كبوق على أذنه وقال:

- «اسمع أيّها الشابّ. . أصخ السمع. هل تسمع هذا»؟

- «أسمع ماذا»؟

- «هل تسمع القرآن الذي يتردّد كلّ صباح في أزقّة العرب بغرناطة»؟

أصاخ الأمير، فجاءه صوت القرآن الذي سمعه ذاك الصباح وهو يسير برفقة حارسه في أزقّة غرناطة القديمة.

تابع سلاّم وهو لا يزال يضع بوقه اليدوي على أذنه «أنا أسمعه. ما تقول عن ذلك؟ كيف تفسّر أنّ أصحاب تلك الحوانيت لا يفعلون الشيء ذاته في أوطانهم ويفعلونه في غرناطة؟ أترانا نقول للآخرين بأنّ المعركة لم تنته بعد؟ ها أنت ترى. . قرآن هنا، وجرس هناك. . وقتلٌ في كلّ مكان».

- «أمسلم أنت أيّها الكهل»؟ سأل الأمير.

- «لو قلت لك خلاف ما ذكرت عن الأندلس أكنت لتسألني السؤال ذاته»؟

- «كيف تكون مسلماً والحقد يملأ قلبك على الإسلام»؟

ابتسم الرجل في سخرية وصمت.

وفي مداخلة لا تتّفق وقناعات رماح الدينية قال يعنّف الشيخ:

- «كيف تقول عن المسلمين إنّهم محتلون وهم ينشرون الإسلام»؟

- «دعه ينتشر بالحب، بالحوار، لا بالصدام» ردّ سلاّم وشدّ على قبضة يده «أم أنّ العنف هو ما نريده؟ هل هذا ما تريده أنت؟ هل ترى..؟ أنت أيضاً لم تنته المعركة بالنسبة إليك. أنت كأميرك»، ونظر إلى الأمير وأشار بإصبعه إلى البعيد «هل أدركت الآن اللعنة التي تسكن ذاك القصر. إنه صدام الجرس مع القرآن»؟

تباطأت الكلمات من فم سلاّم، وبدا عليه التعب «قبل أن نبني الحمراء مرّة أخرى علينا أن نطهّر أنفسنا. حان للمعركة أن تنتهي. لن ننتصر على أحد. لن ينتصر أحد على أحد. لأنّه لا يمكن أن نحيا دون آخر نستمدّ منه بقاءنا. الأشجار الكثيرة هي ما يصنع حديقة جميلة. كذلك الأديان. كلّها يقرّبنا إلى الله. وكلّها يصنع إنساناً صالحاً وحديقة جميلة».

- «الإسلام وحده يصنع الإنسان الصالح». قال الأمير.

- «ها قد قلتها أيّها الأمير.. الإنسان الصالح. ولست أظن أننا كنّا بذاك القدر من الصلاح في الأندلس.. لنكون قدوة لأحد. هكذا تصل معي إلى النتيجة نفسها أن الإسلام لم يسكن يوماً في الأندلس.. بل لغة احتلّت وطناً باسم السماء». وفي نبرة إعياء أضاف «أيها الشابّ، استمتع كالآخرين بالقصر، ثمّ دعه وشأنه. وإن أردت أن تبني ما يستحق أن يُبنى، فليكن الحبّ».

أطلق سلاّم زفرة في الهواء كمن أنزل حملاً كان يجثم على صدره، ومضى باتجاه زقاق جانبي صغير. وقبل أن يغيب نظر خلفه إلى الأمير الجامد مكانه وقال «حيث يكون الكذب.. ستجد الحقيقة»! واختفى في انعطافة الزقاق.

تبادل الرجلان النظر، وأطلق الأمير، هو أيضاً، زفرة من تخلّص من حمل جثم على صدره. كان مجهداً، وبدت عيناه زائغتين وفي فمه طعم غريب له مذاق الصدأ. أمّا رماح فقطّب جبينه، وثنى شفته السفلى كشرفة تكاد تسقط: «قلت لك يا طويل العمر.. إنّه رجل معتوه»!

وفيما هما عائدان باتجاه السائق، تمتم رماح.. «لم يبقَ إلاّ أن أسلّم على رأس بيدرو الملعون وأطلب غُفرانه»!

* * *

دخل الأمير إلى قصره في الرياض منهكاً بعد يوم عمل طويل.

كان ذلك بعد شهرين من لقائه سلاّم.

في قاعة مُزدانة بزخارف ذهبية، كان ينتظره بعض مرافقيه، ورماح، وصندوق صغير من خشب العرعر على طاولة صغيرة. وصل الصندوق بعد الظهر باسم الأمير من المغرب.

إن كان رماح قد نسي الحمراء وسلاّم، فلم ينسَ الأمير شيئاً.

كان كلّما نظر إلى مرآته كلّ صباح، تعاوده كلمات الكهل مثل بروق ينفخ بين صُدغيه. لقد أثار سلاّم سؤالاً ليس من الحكمة تجاهله: إن كان صادقاً في ما قال فأين الحقيقة في تاريخنا؟

عندما كان الأمير ينظر إلى رماح وهو منشغل في الحديث إلى بعضهم، كان يتذكّر الشيخ المغربي ابن برجان، ويتساءل في سرّه أين هو الآن؟

كان يشعر بحنين إلى الرجل بقدر ما يشعر بالمقت تجاهه أن تركه واختفى.

لقد أخبره أحدهم، لاحقاً، أنّ رجلاً يعلّق مفتاحاً في رقبته

شوهد على شاطئ قريب من تطوان، يصحبه شيخ يلبس جلباباً، ويحمل تحت إبطه كتباً قديمة.

عاد الأمير ينظر إلى الصندوق الخشبي أمامه.

لم يستعجل فتحه، وانصرف إلى أحاديث جلسائه المكرّرة ذاتها.

فجأة نهض باتجاه باب زجاجي كبير ينفتح على حديقة خارجية.

استقبله هواء صيف ساخن.

وضع يده على درابزين حديدي تسلّقت عليه شجَيرة ياسمين.

أغمض عينيه، وتنشّق الأريج السابح في فضاء الحديقة.

أتته أصوات أصدقائه من المجلس.

عاد إلى الداخل، فهدأت الأصوات تدريجياً.. ثمّ صمتت.

التقط الصندوق الصغير ومضى باتجاه مكتبه.

وفيما ساد الصمت أرجاء القصر، كان صوت باب المكتب يغلق بهدوء!

* * *

الطبعة الثانية

سلام

رواية

هاني نقشبندي

دار الساقي

«نجحت الرّواية في عمليّة الإسقاط، بين ما مثّلته الأندلس، وما يمثّله الصّراع اليوم بين ثقافات تتواجه على مسرح الحضارة العالمية الراهنة!» (جريدة «الحياة»)

«تُثير الرواية الكثير من الإشكاليات حول مصداقية الدرس التاريخي الذي تعلّمناه في الكتب المدرسية!» («أخبار الأدب» المصرية)

«الرواية هي مزيج من التاريخ والخرافة والأيديولوجيا يتحرّك بين الذاكرة الأندلسية والواقع العربي!» («الوطن» السعودية)

«إنها محاولة لوضع الأمور في نصابها ورفع الغبار عن الأذهنة التي عشقت البكائيات.» («الوطن» الكويتية)

«تطرح الرواية أسئلة لا نجرؤ على البوح بها إلا في جلساتنا الخاصة... كأن لسان حاله يقول إن لعنة تاريخنا الملطخ بالدم ما تزال تلاحقنا إلى يومنا هذا.» («الرأي» الأردنية)

هاني نقشبندي كاتب وصحافي سعودي، يعمل حالياً مع قناة دبي كمعدّ ومقدّم برامج حوارية. صدرت له عن دار الساقي رواية «اختلاس».

ISBN 978-1-85516-312-6



